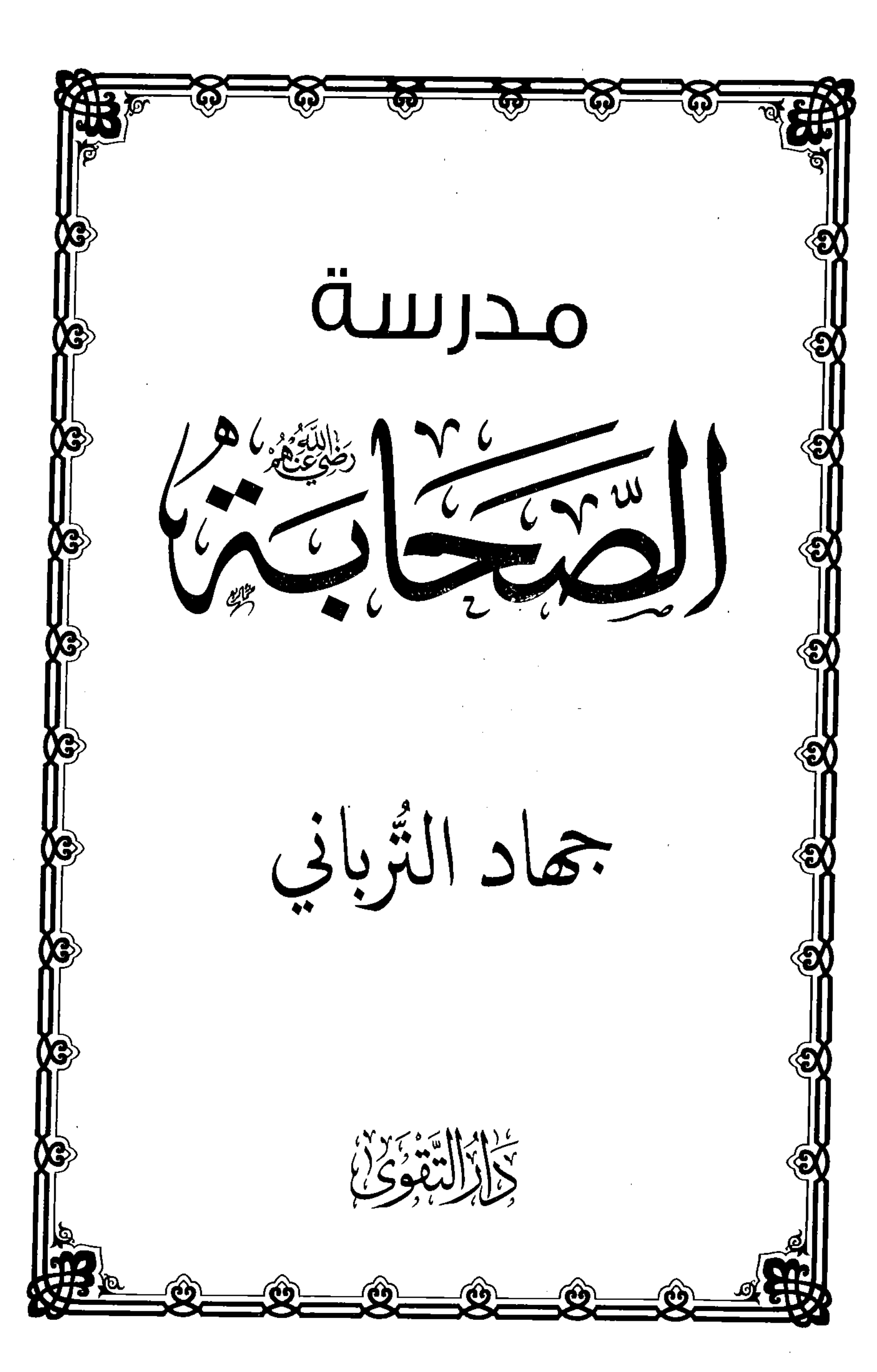
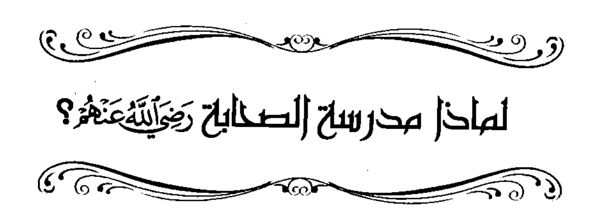

مدرسة
الصحابة
رضي الله عنهم
جهاد التُّرباني
دار التقوى



لماذا مدرسة الصحابة رضي الله عنهم؟

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[1]

في شِعب من شِعاب مكة يقال له شِعب أبي طالب، أو شعب بني هاشم، حاصرت قريش عشيرة بني هاشم[2]، وهي عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أعلنت حمايتها له،

---

(1) سورة التوبة، الآية: (100).

(2) بنو هاشم نسبة لهاشم بن عبد مناف سيد قريش والجد الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واسم هاشم الحقيقي هو عمرو بن عبد مناف، وقد سمي هاشم بهذا الاسم لكونه كان يهشم الثريد للحجاج في مكة المكرمة، أي: يكسر الخبز في المرق لهم، وتوفي هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم في مدينة غزة الفلسطينية في تجارة لها في رحلة قريش السنوية للشام، لذلك تسمى مدينة غزة بغزة هاشم.

وأضافت قريش لهذا الحصار عشيرة بني المطلب[1] التي أعلنت وقوفها مع أبناء عمومتهم من بني هاشم في الدفاع عن ابنهم محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فتعاهد زعماء قريش ألا يتعاملوا معهم بأي شكل من المعاملات، كالبيع والشراء والزواج، وعلقوا صحيفة بهذا المضمون في الكعبة، وكان هدف قريش من هذا الحصار القاسي هو الضغط على بني هاشم وبني المطلب لترك حماية رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي أعلن رفضه لكل العروض والمغريات التي عرضتها عليه قريش لترك دعوة الإسلام.

وفي أواخر أيام الحصار القاسي الذي استمر لثلاث سنوات،

---

(1) بنو المطلب: نسبة للمطلب بن عبد مناف عم جد الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عبد المطلب بن هاشم، والمطلب هو الذي أتى بعبد المطلب من عند أخواله من بني النجار من يثرب، فبعد موت هاشم في غزة، عاش عبد المطلب، واسمه الحقيقي شيبة، في يثرب مع أمه التي كانت تنتمي لبني النجار من قبيلة الخزرج، ولكن عمه المطلب ذهب إلى يثرب ليحضره، فأردفه على بعيره ورجع به إلى مكة، فلما دخل به إلى مكة اعتقدت قريش أن ذلك الفتى عبد من عبيد المطلب، فقال القرشيون: عبد المطلب. فقال المطلب: لا إنما هو ابن أخي شيبة. ومن هنا جاء اسمه الذي لزمه طيلة حياته: عبد المطلب!

وفي ظل هذه الظروف الصعبة، وُلد في هذا الشِّعب مولود للعباس بن عبد المطلب عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجيء به للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسماه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله، وبعد هجرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، عاش هذا الطفل في مكة أثناء إقامة والديه فيها، فلم يدرك إلا فترة زمنية قصيرة نسبيًا بصحبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي توفي وعبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يتجاوز خمس عشرة سنة[1].

ولكن العجيب بالأمر، أن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أصبح من أهم علماء الدين الإسلامي عبر التاريخ، فصار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يلقب بألقاب كثيرة مثل: ترجمان القرآن، وحَبر[2] الأمة، وبحر العلم، وكان الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلقبه بـ فتى الكهول[3]، وبالرغم من حداثة سنه، كان الخلفاء الراشدون يقربونه ويستشيرونه في قضايا الدولة المهمة، فكان مستشارًا لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان ممثل أمير المؤمنين

---

(1) «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

(2) حَبر الأمة: أي عالم الأمة.

(3) «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مناظرة الخوارج الذين خرجوا عليه، وبعد أن استمع الخوارج إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رجع منهم ألفان بعد أن اقتنعوا بالحجج العلمية والعقلية التي بينها لهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأسلوبه المفهوم وبحر علمه الزاخر.

والسؤال الذي يدعو للعجب بالفعل: كيف تمكن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الوصول إلى هذه المكانة العلمية الكبيرة بالرغم من حداثة سنه وصحبته القصيرة نسبيًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

والجواب حسب ما أرى يتلخص في ثلاثة أمور عملت على صناعة شخصية عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

1- الذكاء الفطري:

تميز ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالذكاء ورجاحة العقل، وهذا ما لاحظه خال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابي سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين وصف ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«ما رأيت أحدًا أحضر فهما، ولا أكبر لبًا، ولا أكثر علمًا، ولا أوسع حلمًا من ابن عباس»[1]

(1) «تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، للذهبي.

ومن المعلوم أن من أهم صفات الأذكياء كثرة السؤال عن طبيعة الأشياء، وحتى بعد حصولهم على المعلومات التي يبحثون عنها، لا يكتفون بحفظها، بل تقوم عقولهم بعمليات تحليلية لتلك المعلومات، وهم بذلك يختلفون عن كثير من البشر ممن يكتفون بترديد ما يُلقن لهم دون فهم أو تحليل، وقد لخص عبد الله بن عباس رضي الله عنهما هذا الأمر بنفسه:

«قيل لابن عباس رضي الله عنهما: كيف أصبت هذا العلم؟!
قال: لسانًا سؤولًا، وقلبًا عقولًا»[1]

2- بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

نال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ لحظات حياته الأولى، وتروي أمه الصحابية أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم عند ولادتها لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

«بينا أنا مارَّةٌ والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحُجَرِ، فقال يا أمَّ الفضلِ. قلْتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ. قال: إنَّكِ حامِلٌ بغُلامٍ.

---

(1) «فضائل الصحابة» للإمام أحمد بن حنبل.

قلْتُ: كيف وقد تحالَفَتْ قريشٌ لا يُوَلِّدون النِّساءَ. قال هو ما أقولُ لكِ، فإذا وضَعْتيه فائْتيني به. فلمَّا وضَعْتُه أتيتُ به النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسمَّاه عبدَ اللهِ، وألْبَاه بريقِه، قال: اذهَبي به فلَتَجِدَنَّه كَيِّسًا[1]»[2]

وقد دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قائلًا:

«اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْه التَّأويلَ»[3]

3- حرصه على التعلم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

لمّا توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان عدد صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كبيرًا، ولكن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان يدرك بأن هذا الأمر مؤقت، وأنهم مع مرور الوقت سيفارقون الحياة واحدًا واحدًا، وخشي أن يضيع ما في صدورهم من علم تعلموه مباشرة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لذلك رأى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ضرورة الإسراع بالتعلم من مدرسة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويروي

---

(1) كيسًا: فطنًا وذكيًا.

(2) «مجمع الزوائد» للهيثمي.

(3) «صحيح ابن حبان».

عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كيف أنه كان تنقل بين أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتزود منهم العلم، وكيف أن هذا العلم الذي تعلمه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كان سببًا في وصوله لما وصل إليه من مكانة علمية جعلت الناس تأتيه لكي يتعلموا منه:

«لمَّا تُوُفِّيَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلتُ لِرَجُلٍ مِنَ الأنصارِ: هَلُمَّ نَسألْ أصحابَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّهمُ اليَومَ كَثيرٌ. فقال: واعَجَبًا لكَ يا ابنَ عبَّاسٍ، أتَرى الناسَ يَحتاجونَ إليكَ، وفي الناسِ مِن أصحابِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَن تَرى؟ [فتَرَكتُ] ذلك، وأقبَلتُ على المَسألةِ، فإنْ كان لَيَبلُغُني الحَديثُ عنِ الرَّجُلِ، فآتيه وهو قائِلٌ، فأتوَسَّدُ رِدائي على بابِه، فتَسْفي الرِّيحُ علَيَّ التُّرابَ، فيَخرُجُ، فيَراني، فيَقولُ: يا ابنَ عَمِّ رَسولِ اللهِ، ألَا أرسَلتَ إلَيَّ فآتيكَ؟ فأقولُ: أنا أحَقُّ أنْ آتيَكَ، فأسألَكَ. قال: فبَقيَ الرَّجُلُ حتى رآني وقدِ اجتَمَعَ الناسُ علَيَّ، فقال: هذا الفَتى أعقَلُ مِنِّي!»(1)

(1) البوصيري «إتحاف الخيرة المهرة».

لا شك أن رجاحة عقل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ونظرته المستقبلية للأمور، وبركة دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفوق هذا كله توفيق الله، كلها أمور عملت على أن يدرك هذا الفتى القرشي الذكي أهمية التعلم من مدرسة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فبعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم من تحملوا مهمة نقل تعاليم هذا الدين للبشرية بأسرها، فآيات القرآن التي بين أيدينا، والسنة المحفوظة في كتب الحديث، ما كانت لتصلنا لولا أن سخر الله للإنسانية جيل الصحابة العظام! جيل حفظة.

ولا تكمن أهمية دراسة سير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقط في كونهم حفظة الوحي السماوي الخاتم الذي أنزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن أيضًا في كونهم أكثر من فهم تعاليم الدين الإسلامي في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبر التاريخ، لأنهم عايشوا الآيات وقت تنزيلها، وسمعوا الأحاديث من فم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففهموا بذلك المعاني الحقيقية لآيات القرآن الكريم، وأدركوا ما كان يقصده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديثه الشريفة، فأصبح تفسيرهم للكتاب والسنة هو التفسير الأصح، وكان نهجهم الديني هو الأقرب لنهج الرسول الأعظم

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد أن تتلمذوا في مدرسته، ونهلوا من نبعه الصافي، لذلك فنحن عندما نتعلم من مدرسة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا نتعلم تاريخنا وحسب، بل نتعلم أيضًا ديننا الذي طبقه الصحابة في تعاملاتهم الحياتية، لنفهمه أكثر، ونستوعبه أكثر، بعيدًا عن الشوائب التي قد يجدها المسلم أحيانًا في بعض الأمور التي ألصقت بالدين على مدى مئات السنين، لذلك لن أركز في هذا الكتاب على ذكر قصص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بشكل مفصل، بل سأحاول من خلال صفحاته دراسة منهجهم العام في الحياة، المنهج الذي استطاعوا من خلاله بناء حضارة إنسانية عظيمة نشرت الخير والعلم والإيمان في مختلف أرجاء العالم.

والصحابي: هو كل من لقي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا به ومات على الإسلام[1].

وجيل الصحابة جيل عجيب، فليس غريبًا أن يظهر عظيم من العظماء في أمة من أمم الأرض، فقد ظهر قادة ومفكرون في أمم مختلفة من أمم الأرض غيروا من حال شعوبهم، وأصبحوا عظماء في التاريخ، حتى ولو كانت عظمتهم في عيون شعوبهم

(1) «شرح التبصرة والتذكرة» لأبي الفضل العراقي.

فقط، ولكن أن يظهر جيل كامل من العظماء في نفس الأمة، وفي وقت واحد، دفعةً واحدة، فلا يكتفي هؤلاء بتغيير حال أمتهم فحسب، بل يغيرون حال الأرض بمن عليها إلى يوم القيامة، إننا لا نتحدث عن عظيم واحد فقط، إننا نتحدث عن جيل فريد من نوعه، إننا نتحدث عن صحابة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، هؤلاء العظماء وصفهم الله سبحانه وتعالى بوصف عجيب يختصر كثيرًا من المعاني والكلمات، في آية تجمع جميع حروف اللغة العربية:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ (1)

ولكي يتسنى لك فهم معنى هذه الآية الجميلة في وصف الصحابة رضي الله عنهم، ينبغي عليك أن تتخيل هذا التصوير الرباني

(1) سورة الفتح، الآية: (29).

الدقيق، تخيل أن هناك نبتة صغيرة أخرجت من حولها نباتات فرعية من كل الجهات، فأحاطت هذه النباتات الفرعية بالنبتة الأصلية من كل جانب، فشدت من صلابتها، وساندتها، وآزرتها، وبمعونة هذه النباتات الفرعية المساندة أصبحت تلك النبتة الأصلية قوية، متينة، فاستوت وارتفعت عاليًا في السماء، لتتحد معها النباتات الفرعية، مكونين بذلك بنيان جديد يمتاز بالقوة والثبات، قلبه تلك النبتة الأصلية، وجدرانه تلك النباتات الفرعية التي انبثقت منها، فارتفع ذلك البنيان عاليًا بكل ثقة، لدرجة أن الزرّاع الحقيقيين يعجبون به، أمّا إذا نظر إليه كافر، فإنه يصاب بالغيظ من شدة صلابته وقوته، ومثل رسول الله محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمثل تلك النبتة الأصلية التي انبثق منها النباتات الفرعية، التي يمثلها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الذين أحاطوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كل جانب، فآزروه، وساندوه، فقوي بهم، وارتفع إلى أعلى وهم محيطون به، فتكون هذا البنيان الثابت الذي قلبه هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجدرانه الصلبة هم صحابته الكرام، أمّا الزراع الذين يريدون الزراعة الحقيقية (وهم المؤمنون الحقيقيون)، فإنهم يتأملون

في ذلك الزرع الثابت ليتعلموا منه أساس الزراعة الصحيحة، أما الكفار، فإنهم يغتاظون من روعته وقوته!

وفهم هذه الآية الرائعة يوضح لنا السبب الحقيقي لحملات التشويه الإعلامية التي تهدف للطعن في تاريخ وعدالة صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم الجدار المتين الذي يحيط بالقلب الأصلي، وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا تمكن غزاة التاريخ من تدمير الجدار المنيع لهذا البنيان القوي، سيصبح المجال مفتوحًا لمهاجمة القلب، إن الهدف الحقيقي لهؤلاء الغزاة هو الوصول إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

ومن قراءة تأملية لحياة كثير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وجدت أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يكونوا عظامًا من فراغ، بل كانوا كما أعتقد نتاجًا لثلاثة عوامل أساسية ساهمت في تكوين شخصياتهم الفريدة:

- أولًا: الاختيار الرباني:

اختار الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين كل البشر ليحمل آخر رسالة منه إلى الخلق أجمعين، ولمّا كان هذا الرسول بشرًا له عمر محدد، فقد كان حقًّا على الله أن يختار له من يعينوه على

إتمام رسالته في حياته، ثم حمل تلك الرسالة بعد مماته إلى باقي شعوب الأرض دون تبديل أو تحريف، وإلا فلن تكون لله على الناس حجة إذا ما ضاعت الرسالة الصحيحة!

ولا يحتاج المتأمل لقصص الصحابة إلى كثير من الذكاء ليرى بوضوح اختيار الله للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليكونوا سندًا لنبيه، فالأوس والخزرج لم يكونوا أصلًا من سكان المدينة، فهم من قبيلة الأزد القحطانية التي هاجرت من اليمن بعد انهيار سد مأرب، فمن الذي جعلهم يختارون مدينة يثرب التي سيهاجر إليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك؟ ومن الذي جعل سد مأرب ينهار من الأساس لكي يهاجروا هم إلى تلك المدينة؟ وسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انتقل في مغامرة عجيبة من بلاد فارس إلى الشام فالعراق فتركيا بحثًا عن الحق، حتى نصحه كاهن عمورية بالسفر إلى مدينة بها نخل كثير في بلاد العرب، ليلاقي النبي الذي تنتظره البشرية، وسبحان الله، لم يكن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعرف اسم تلك المدينة، أو مكانها بشكل محدد، وأثناء سفره إلى جزيرة العرب، اختطفته مجموعة من قطاع طرق، لكي يتحول إلى عبد فاقد للحرية في جزيرة العرب، ليشتريه في نهاية الأمر يهودي من يهود يثرب بالتحديد، المدينة التي ساقه الله إليها، والتي بمجرد أن رآها

سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أدرك أنها المدينة التي جاء للبحث عنها، وما هي إلا سنوات معدودة، حتى التقى فيها النبي الذي لم يكن يعرف مكانه بالتحديد!

وكما هو ثابت في الآية الكريمة التي ذكرناها، فإن الصحابة بُشر بهم في التوراة والإنجيل، ولكن نظرًا لضياع النسخ الأصلية من التوراة والإنجيل وتحريف كثير مما تبقي من أثر منهما، فإنه من الصعب الوصول إلى النص الأصلي الذي ذكر به الصحابة في التوراة والإنجيل، ولكن عثرت على شيء مثير للاهتمام في الكتاب المقدس لدى النصارى المسمى بـ «البايبل»[1]، الذي بقيت فيه بلا

---

(1) البايبل: هو الكتاب المقدس لدى النصارى حاليًا، ويسمى «البابيل» أو «الكتاب المقدس»، والبايبل «Bible» كلمة إغريقية تعني «الكتب»، ولذلك تسمى المكتبة في كثير من لغات العالم بيبيوتيك أو بيبليوتيكا، ويعتقد النصارى أن الرب أوحى بما لكتبة هذا الكتاب بما جاء فيه، فكتبه عدة أشخاص في أزمنة مختلفة، بعض هؤلاء الأشخاص معروف، وبعضهم مجهول تاريخيًا، والظاهر أن البايبل أو الكتاب المقدس يحتوي على بعض ما جاء به المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من تعاليم ونبوءات، ولكنه يحتوي أيضًا على قصص تاريخية وأمور أخرى كتبت بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

شك بعض من نصوص التوراة والإنجيل الأصلية، ولكن هناك شيء لافت للانتباه وجدته في الكتاب المقدس «البايبل» في سفر التثنية، فقد ورد في نسخة إنجليزية من البايبل، وهي نسخة «الملك جيمس» «King James bible» ما يلي:

"The LORD came from Sinai, and rose up from Seir unto them; he shined forth from mount Paran, and he came with ten thousands of saints: from his right hand went a fiery law for them"

هذا المقطع الذي ورد في سفر التثنية، ترجمته إلى العربية ما يلي:

«جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبال فاران، وأتى معه عشرة آلاف قديس، وعن يمينه خرجت شريعة مضيئة كالنار لهم»

هذا النص يتحدث عن ثلاثة أماكن، أولها جبل سيناء، وفي هذا إشارة إلى سيناء حيث كلم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وثانيها جبل

سعير، وهو جبل يقع في أرض فلسطين كما ورد في إصحاح يشوع، وفي هذه إشارة إلى مهد المسيح، وثالثها هو جبل فاران، وبالرجوع إلى البايبل نفسه، فإن جبل فاران هو جبل يقع حيث يسكن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما ورد في سفر التكوين، إذًا فالكلام الذي ورد في ذلك المقطع يتكلم عن سيناء إشارة لسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعن جبل سعير إشارة لسيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعن مكة إشارة إلى المكان الذي خرج منه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعشرة آلاف قديس الذين كانوا معه، ولعل في ذلك إشارة إلى العشرة آلاف صحابي الذين كانوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فتح مكة كما ورد في السيرة النبوية، العجيب أن النسخ العربية المشهورة من الكتاب المقدس حذفت هذا المقطع الذي يتحدث عن «العشرة آلاف قديس»، لا نعرف السبب بالتحديد، ولكن ربما حذف هذا المقطع لإخفاء هذه الحقيقة عن عامة المسيحيين البسطاء، وعلى أي حال، ما تزال النسخة الإنجليزية للملك جيمس تحتفظ بها المقطع المحذوف من النسخ العربية.

- ثانيًا: تتلمذوا في مدرسة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لعل من أبرز ما تميزبه الصحابة عن بقية الخلق في كل العصور أنهم تعلموا مباشرةً من مدرسة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فأصبحوا بذلك أعظم تلاميذ لأعظم أستاذ، فوَرد الصحابةُ النبعَ صافيًا دون أي شائبة، ووردناه نحن مختلطًا بالشوائب، لذلك كان فهمهم للدين أصح من فهم غيرهم بالضرورة، ذلك أنهم عاشوا بالفعل مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأصبح فهمهم للكتاب والسنة هو الفهم الصحيح للدين، فالصحابة هم الذين عايشوا الآيات لحظة نزولها، وعرفوا أسباب تنزيلها، فتطبيق الصحابة للقرآن والسنة هو التطبيق الصحيح لأنهم، أخذوه مباشرة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون أدنى تحريف، وهذا لا يعني أن آحاد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا معصومين من الخطأ، فقد أخطأ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخطأ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخطأ غيرهم، ولكن الفهم العام للصحابة لأمر من أمور الدين هو الفهم الصحيح بدون أدنى شك.

- ثالثًا: الجهاد النفسي:

الصحابة الكرام لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من عظمة إلّا بعد جهاد نفسي شاق، فالحديد الصلب لا يصبح صلبًا إلا بعد خروجه من بوتقة النار الملتهبة، ومصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عانى في مكة قبل أن يتمكن من حمل راية المسلمين في أحد، وعثمان بن

عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُربط ويعذب من قبل عمه قبل أن يصبح ثالث خليفة للمسلمين، وسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحمل آلام الغربة والسفر الشاق وحياة العبودية قبل أن يصبح أميرًا على المدائن العاصمة التاريخية للإمبراطورية الفارسية الساسانية، فدرب النجاح درب طويل وصعب، ويحتاج إلى صبر وجهاد نفسي كبير.

ولا يخفى على أحد أن المسلمين في عقودهم الأخيرة لا يمرون بأحسن أوقاتهم، فقد تخلفوا عن ركب الحضارة الإنسانية في كثير من النواحي الحضارية، وهذا الأمر في حد ذاته لا يمثل مشكلة كبيرة كما يظن البعض، فأي قارئ جيد للتاريخ يعلم أن كل الأمم المتقدمة مرت في السابق بمراحل تخلف حضاري تجاوزته بعد أن أخذت بأسباب التقدم والنهوض، وسينهض المسلمون حتمًا كما نهضوا في السابق، خاصة مع وجود موروث حضاري وثقافي عظيم للمسلمين يؤهلهم للعودة إلى سابق مجدهم، كل ما يحتاجونه هو الأخذ بأسباب التقدم التي أخذ بها أجدادهم الذين صنعوا حضارتهم الإنسانية الراقية، وعاجلًا أم آجلًا سيأتي اليوم الذي سيقومون فيه بالأخذ بتلك الأسباب، ليس لدي أدنى شك في ذلك، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في يأس بعض المسلمين من

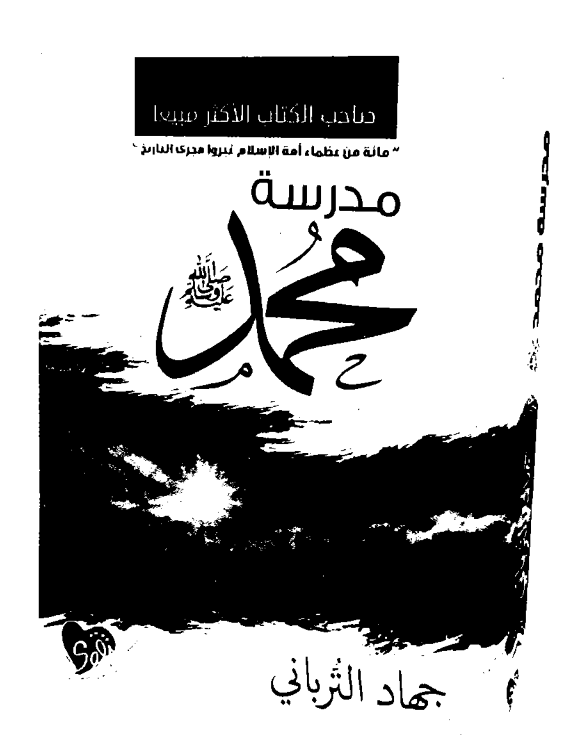
واقعهم المظلم، خاصة مع وجود أصوات كثيرة من المحبطين الذين احترفوا صناعة الإحباط وزراعة اليأس في قلوب الشباب، بدلًا من محاولة النهوض بالهمم والبحث عن حلول عملية للخروج من هذا الواقع المظلم الذي ورثه الشباب بالأساس من أفعال هؤلاء المحبطين أنفسهم.

لذلك فكرت قبل عدة أعوام أن أقوم بعمل شيء أحاول من خلاله التصدي لهذه الظاهرة الخطيرة، فقررت أن أبحث عن الأمل المنشود في صفحات التاريخ المنسية، وذلك لقناعة تجسدت لدي من تجربة شخصية بأن قراءة التاريخ من شأنها أن تحيي الأمل في القلوب المكسورة، وأن تزرع الثقة في النفوس المحبطة، فأصدرت كتابي الأول «مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ»، وترجم الكتاب لعدة لغات أجنبية، إضافة لذلك قمت بإنتاج برنامج «العظماء المائة» الذي نشرته على موقع يوتيوب «YouTube» في شبكة الإنترنت، فكتب الله القبول لكتابي ليتصدر قائمة الأكثر مبيعًا في الوطن العربي، وحتى كتابة هذه الحروف، تجاوز عدد مشاهدات برنامجي «العظماء المائة» ما يزيد عن 70 مليون مشاهدة في اليوتيوب، وترجم البرنامج لما يزيد عن 15 لغة أجنبية، ولله الحمد والمنة.



وبعـد أن كتـب الله النجـاح لتجـربتي الأولى، وبعـد سـنوات طويلة من التردد، وبناء على رغبة كثيرمن القـراء الكرام، تجرأت وكتبت عن سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان كتـابي «مدرسـة محمـد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» الـذي أردت مـن خلالـه اسـتعراض سـيرة الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسلوب عصري وشـيق، وبفضـل

الله تجاوز قبول المسلمين لهذا الكتاب كافة التوقعات، وأقبل كثير من الشباب على سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد قراءتهم لصفحاته، ونعمل حاليًا على ترجمته لنظهر للعالم أجمع حقيقة رسولنا الكريم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وبعد مدرسة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قررت خوض مغامرة جديدة، أحاول من خلالها استعراض بعض الدروس والعبر من حياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ليخرج هذا الكتاب: مدرسة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

والله أرجو، أن ينال هذا الكتاب التوفيق والنجاح، وأن يكتب له القبول بين الناس، وأن يجعله عملًا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجد فيه كل من يقرؤه دروسًا وعبرًا يستفيد منها في دنياه وآخرته.

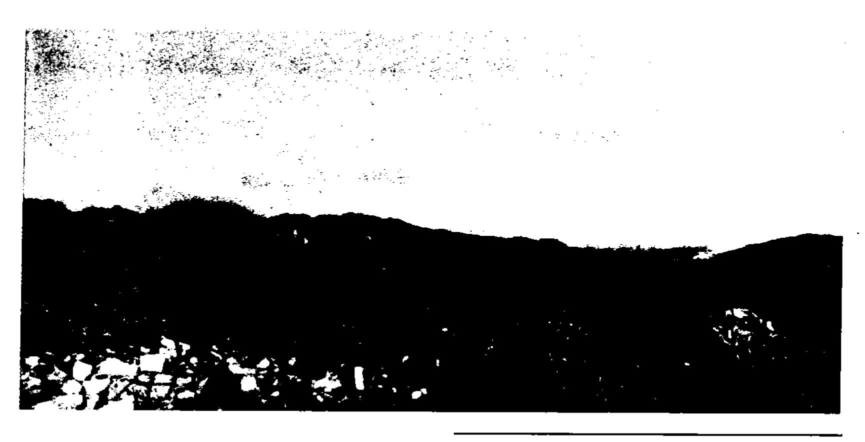




المناصرة

«يا رسولَ اللهِ، امضِ لما أراك اللهُ، فنحنُ معك، واللهِ لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهبْ أنتَ وربكَ فقاتِلا إنا ههنا قاعدونَ، ولكن اذهب أنتَ وربكَ فقاتِلا إنَّا معكما مقاتلون»(1)

(المقداد بن عمرو)



(1) «البداية والنهاية» لابن كثير.

في منطقة صخرية تسمى «عرق الظبية»، في الطريق إلى آبار بدر، وقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أصحابه يستشيرهم في أمر المواجهة، مواجهة جيش كفار قريش القادم من مكة، فأراد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معرفة آراء أصحابه قبل اتخاذ أي قرار، خاصة وأنهم لم يخرجوا بالأساس للقتال، وإنما للاستيلاء على قافلة تابعة لقبيلة قريش التي استولت على أموال المسلمين في مكة، فكانت هذه القافلة بمثابة التعويض لبعض ما سرقه كفار قريش من المهاجرين المسلمين، فلما علم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمرورها في الطريق من الشام إلى مكة، خرج من المدينة ومعه 314 صحابيًا فقط لاعتراضها، ولكن أبا سفيان قائد القافلة علم بالتحرك الإسلامي، فابتعد بها عن طريق المسلمين، وأرسل إلى قريش يخبرهم بالأمر، فلم يكتفِ قادة مكة بنجاة قافلتهم، بل جهزوا جيشًا كبيرًا يقدر بألف جندي، وتوجهوا به إلى الشمال لملاقاة المسلمين.

نقلت الاستخبارات الإسلامية إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفاصيل تحركات العدو وتقديرات قوته المحتملة، فطلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشورة من أصحابه، وكانت هذه عادة يسير عليها

في كل موقف جلل يواجه المسلمين، فلم يكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طينة أولئك القادة الذين يعتقدون أنهم يعلمون كل شيء، ويستطيعون القيام بكل شيء، بعد أن توهموا في قرارة أنفسهم أنهم وحدهم من يستطيعون رؤية سبيل الرشاد لشعوبهم، فلا يستشيرون أحدًا في القرارات المصيرية التي قد تودي بشعوبهم إلى الضياع والتهلكة، فعلى العكس من ذلك، كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدرك أن القيادة لا تعني الاستبداد بالرأي، وأن النقاش الحر في قضايا المجتمع المختلفة عادة ما ينعكس أثره الإيجابي في المصلحة العامة، لذلك قرر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استشارة أصحابه في ذلك الوقت الحرج من عمر الدولة الإسلامية الناشئة، ليس فقط للاستماع إلى آرائهم، ولكن أيضًا احترامًا لأشخاصهم، واحترامًا لمبدأ حرية الإنسان، فهؤلاء الرجال في نهاية الأمر بشر، لديهم عائلات وأعمال وأحلام تنتظرهم في المدينة، وهم لم يخرجوا منها بنية القتال والاشتباك مع جيش يفوقهم كثيرًا بالعدد والسلاح، بل خرجوا في مهمة بسيطة ومحددة، لم يكن بها أي خطورة تذكر على أرواحهم، فكانوا يعتقدون أنهم سيعودون منها بسرعة محملين بالأموال

والغنائم، ولكن الوضع الآن تغير، وصاروا أمام واقع جديد يضع أرواحهم على المحك، فأراد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاستماع إلى وجهات نظرهم المختلفة قبل الإقدام على اتخاذ قرار مصيري مثل قرار الحرب!

وفي تلك المنطقة الصخرية، أخذ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمع إلى أصحابه بإنصات، دون أن يضغط عليهم باتجاه رأيه الخاص، على الرغم من أن الوحي قد جاءه من السماء بنتيجة المعركة مسبقًا، فلم يكن فقط يعلم بأنها ستكون في صالح المسلمين، بل كان أيضًا يرى الأماكن التي سيصرع بها قادة قريش، ولكنه لم يصرح بذلك لأصحابه في بداية الأمر، وفضل أن يستمع إلى آرائهم أولًا، وذلك لكيلا يؤثر على قرارتهم الشخصية.

وكالعادة في تبكيره في كل ما فيه خير، كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أول من أبدى رأيه، ثم تلاه الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان رأيهما يصب في خيار المواجهة مع الغزاة، ولكن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استمر في طلب المشورة من أصحابه، عند ذلك تقدم الصحابي المقداد بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان فارسًا من

فارسين اثنين[1] فقط اشتركا في بدر، فقال المقداد بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«يا رسولَ اللهِ، امضِ لما أراك اللهُ فنحنُ معك، واللهِ لا نقول لك كما قال بنو إسرائيلَ لموسى: اذهبْ أنتَ وربكَ فقاتِلا إنا ههنا قاعدونَ، ولكن اذهب أنتَ وربكَ فقاتِلا إنَّا معكما مقاتلونَ، فوالذي بعثكَ بالحقِّ لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغِمَادِ[2] لجالدنا معك من دونِه حتى تبلُغَه»[3]

فسر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلام المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأشرق وجهه، ولكنه أراد الاستماع إلى وجهة نظر الأنصار، فقد كان أبو بكر وعمر والمقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من المهاجرين، فحرص الرسول

---

(1) الفارس: المقاتل الذي يمتطي فرسًا. وقد شارك في غزوة بدر من المسلمين فارسان اثنان فقط، هما: الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمقداد ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) منطقة في جنوب الجزيرة العربية، كان أهل مكة يضربون بها المثل في البعد، والمقصود من ذلك «بأننا ماضون معك إلى أبعد الحدود».

(3) «البداية والنهاية» لابن كثير.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الاستماع إلى الرأي الآخر، ليس فقط لأن الأنصار كانوا يمثلون الأغلبية في ذلك الجيش، ولكن أيضًا لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان رجل قانون يحترم دستور الدولة التي يدير شؤونها، وكان من ضمن بنود هذا الدستور بند وضعه الأنصار، وهم سكان المدينة الأصليون، هذا البند يحتم على الأنصار حماية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخل حدود المدينة فقط[1]، أي أن الأنصار غير مطالبين، وفقًا للدستور المعمول به في ذلك الوقت، بحماية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارج نطاق المدينة، فلم يرد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجبارهم على القتال، لذلك استمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طلب المشورة من جنده، آملًا أن يبدي الأنصار رأيهم في المسألة، فردد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«أشيروا عليَّ أيها الناس»

فلمَّا قال رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، أدرك سيد الأنصار

---

(1) قال الأنصار للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيعة العقبة قبل أن يهاجر إليهم: «يا رسولَ اللهِ إنَّا برآءٌ من ذمامِكَ حتى تصلَ إلى ديارنا فإذا وصلتَ إلينا فأنت في ذمتنا نمنعُكَ مما نمنعُ منْهُ أبناءَنا ونساءَنا».

الصحابي سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] ما يقصده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

والله لكأنَّك تريدُنا يا رسولَ اللهِ؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أجل.

فقال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«فقد آمنَّا بك، وصدَّقناك، وشهِدنا أنَّ ما جئت به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السَّمعِ والطَّاعةِ، فامضِ يا رسولَ اللهِ لما أمرك اللهُ، فوالَّذي بعثك بالحقِّ، إن استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك، ما يتخلَّفُ منَّا رجلٌ واحدٌ، وما نكرهُ أن تَلقَى بنا عدوَّنا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ في الحربِ، صُدُقٌ عند اللِّقاءِ، ولعلَّ اللهَ يريك منَّا ما تقرُّ به عينُك، فسِرْ بنا على بركةِ اللهِ»

---

(1) سعد بن معاذ بن النعمان الأوسي الأنصاري، زعيم قبيلة الأوس، وأحد قادة الأنصار الكبار، شارك مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر وأحد، واستشهد في غزوة الخندق، قال عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند موته: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ». «صحيح البخاري».

فَسُرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِ سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونشَّطه ذلك، ثمَّ قال:

«سيروا على بركةِ اللهِ وأبشروا، فإنَّ اللهَ قد وعدني إحدَى الطَّائفتين، واللهِ لكأنِّي الآن أنظرُ إلى مصارعِ القومِ»[1]

لا أجد مثل هذه القصة الرائعة لتوضيح صفة من أهم الصفات التي تميزبها جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هذه الصفة أعتبرها شخصيًا من أهم عوامل نجاح أي دعوة، سواء كانت دعوة سماوية أو بشرية، دينية كانت أو سياسية، بغض النظر عن كونها دعوة حق أو باطل، إنها صفة المناصرة!

فقد قرأت كثيرًا في تاريخ الأمم والحضارات، وتأملت في قصص الأنبياء وأتباعهم، وتعمقت في سير القادة، وأصحاب الرأي، وصانعي النظريات الفكرية، قديمًا وحديثًا، فوجدت أن انتشار أي دعوة يتطلب بالضرورة من أتباعها مناصرة لصاحبها، وأن هذه النصرة من الأهمية بمكان بحيث تحتل المرتبة الثانية

(1) «عمدة التفسير» لأحمد شاكر.

مباشرة بعد الإيمان بدعوته، فانتشار الدعوة ووصولها لهدفها الذي رسمه صاحبها لها لا يستوجب من أتباعه الإيمان بها فقط، بل يستوجب منهم العمل على نصرته حينما يتطلب الأمر ذلك، فالمناصرة كلمة مرادفة للنصرة والتأييد والدفاع، وهي عكس الخذلان.

وقد وُفق الصحابي المقداد بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كلماته القليلة الفصيحة التي لخص من خلالها مفهوم مناصرة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد استخدم المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسلوبًا بلاغيًا بديعًا لطالما استخدمته العرب في إيضاح معاني الكلام، وهو أسلوب إظهار الفكرة بشكل جلي عن طريق ذكر فكرة أخرى مضادة لها في المعنى، أو كما قال الشاعر المتنبي:

«وبضدها تتبين الأشياء»

المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكر قصة خذلان بني إسرائيل لنبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي وردت في القرآن:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾[1]

وهذه القصة توضح المعنى الحقيقي للمناصرة من خلال إظهار معنى الخذلان، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضحى بالكثير من أجل الدعوة، ومن أجل تحرير هؤلاء القوم من حياة الذل والهوان التي كانوا يعيشون بها لأجيال وأجيال، وقاوم ظلم فرعون وجبروته، وانتشل قومه من مستنقع العبودية والذل عند آل فرعون، وتحمل في سبيل ذلك مشقة الدعوة والآلام التي رافقتها، ليصدم في نهاية الأمر بخذلان أتباع جبناء ظهر معدنهم المزيف عندما وُضعوا على المحك وحانت ساعة الحقيقة، وكان هذا الأمر من عظيم الابتلاءات التي ابتلي به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في حياته، فقد لاقى كليم الله في السابق ما لاقاه من فرعون وملئه، ولكن هذا الموقف المخزي من أتباعه كان له بالتأكيد وقع آخر في قلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

---

(1) سورة المائدة، الآية: (24).

أشد ما يؤلم صاحب الدعوة، ليس حرب الأعداء، بل
خذلان الأتباع!

ويروي الحافظ ابن كثير رواية عجيبة يصف بها جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية بعد موته في السجن:

«وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك، ووضعت في الجامع، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصلّي عليه أولا بالقلعة، تقدم في الصلاة عليه أولا الشيخ محمد بن تمام، ثم صلّي عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر، وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدم ذكره، ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، ثم حمل بعد أن صلّي عليه على الرؤوس والأصابع، وخرج النعش به من باب البريد واشتد الزحام، وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم، وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم ومناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة

يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزحام، كل باب أشد زحمة من الآخر، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها، لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة: باب الفرج الذي أخرجت منه الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية...

وكان دفنه قبل العصر بيسير، وذلك من كثرة من يأتي ويصلي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم، وأغلق الناس حوانيتهم، ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور، مع الترحم والدعاء له، وأنه لو قدر ما تخلف، وحضر نساء كثيرات بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة، غير اللاتي كن على الأسطحة وغيرهن، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل، وأما الرجال فحزروا بستين ألفا إلى مائة ألف إلى أكثر من ذلك إلى مائتي ألف....

وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير، وتضرع وختمت له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد، وتردد الناس إلى قبره أياما كثيرة ليلا ونهارا يبيتون عنده ويصبحون، ورُؤيت له منامات

صالحة كثيرة، ورثاه جماعة بقصائد جمة»[1].

كثير من محبي الشيخ أحمد بن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ يذكرون هذه الرواية لإظهار المرتبة العالية التي بلغها ابن تيمية في نفوس أتباعه الذين توافدوا من كل مكان للصلاة على جنازته، ولتصوير مدى الحزن الذي أصاب الناس في ذلك الزمن على فقدانهم لإمام كبير وعالم عظيم من علماء المسلمين أصاب وأخطأ في اجتهاداته الفقهية، وهناك من يذكر هذه الرواية لتسليط الضوء على جهل بعض الناس في المبالغة التي ظهرت في تعاملهم مع الجنازة من أمور بدعية عاش ابن تيمية نفسه حياته كلها يحذر منها[2]، أما أنا فأنظر إلى هذه القصة من زاوية أخرى لم يُسلط الضوء عليها كثيرًا، وهي زاوية النصرة والخذلان!

فأين كان كل هؤلاء من الأتباع والمريدين عندما كان إمامهم

---

(1) «البداية والنهاية» لابن كثير.

(2) ذكر ابن كثير في كلامه بعض التصرفات البدعية التي قام بها جماعة من الناس في توديعهم للجنازة، وقد كان الزمن الذي ظهر فيه ابن تيمية زمنًا انتشرت فيه البدعة بين الناس، الأمر الذي ظهر جليًا في كتاباته التي ركز في قسم كبير منها على محاربة مظاهر تلك البدع.

يتألم من المرض في أيامه الأخيرة في سجنه الانفرادي؟! أين كانت نصرتهم لابن تيمية الذي مات مظلومًا بعد أن مُنع من الكتابة وصودرت كل أوراقه وأقلامه في سجنه المظلم الذي أضر ببصره في أيامه الأخيرة؟! ما الذي فعلوه من أجله في حياته على الرغم من إيمانهم بأفكاره وقضيته التي مات من أجلها؟! وما فائدة نحيبهم وبكائهم عليه بعد موته؟!!

هذا التناقض الأخلاقي الذي يظهر في خذلان كثير من الأتباع لقاداتهم تناقض عجيب، فلا هم الذين أظهروا تبرأهم من قاداتهم وكفروا بأفكارهم، ولا هم الذين ناصروهم دفاعًا عن القضية التي ما زالوا يؤمنون بعدالتها في قرارة أنفسهم، هذه السلبية تخلق في كثير من الأحيان داخل نفوس هؤلاء الأتباع صراعًا داخليًا، وما المبالغة في إظهار الحزن بعد رحيل من يتبعونه إلا انعكاس طبيعي عن مشاعر الندم والجبن والخذلان التي تظل مرافقة لكثير من هؤلاء الأتباع طيلة حياتهم، لذلك فلا ينخدع عن قائد سياسي أو صاحب دعوة فكرية بكثرة الأتباع، ففي حالات كثيرة تكررت في التاريخ، خذل أغلب أتباع الدعوة قاداتهم، وتركوهم فريسة لانتقام ومؤامرات أعدائهم، واكتفوا بمراقبة

الأحداث من بعيد، وإظهار تعاطفهم معهم في محنهم، وفي كثير من الأحيان، خافوا على سلامتهم، فلم يجرؤوا حتى على إظهار ذلك التعاطف، وفي بعض الأحيان، تحول هؤلاء الأتباع والمريدين أنفسهم إلى أداة رخيصة بأيدي أعداء صاحب الدعوة!

أما في حالة العلاقة بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة رضوان الله عليهم، فقد كان الأمر مختلفًا...

فلم يكن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من طينة هؤلاء الأتباع الذين يوهمون قائدهم بالشعارات والوعود الزائفة ثم يتخلون عنه ويخذلونه في منتصف الطريق، بل ناصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قائدهم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى نهاية الطريق، وضحوا في سبيل دعوته التي لم يكتفوا فقط بالإيمان بها، بل عملوا كل ما في وسعهم على استمرارها، ولا عجب في ذلك، فهم أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين اصطفاهم الله له، وأثبتت الأيام وحوادث الدهر أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على قدر المسؤولية، فلم يخذلوا قائدهم قط، بل ناصروه في أشد الأوقات، ودافعوا عنه بأرواحهم، ودعموه بكل ما يملكون، وقد تجسد ذلك في كثير من المواقف التي لا يتسع المقام لحصرها في صفحات هذا الكتاب،

ويكفي الصحابة شرفًا تخليد الله سبحانه وتعالى في كتابه لموقفهم في نصرة رسوله الكريم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[1]

والعجيب أن الصحابة لم يحرصوا على نصرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياتهم فقط، بل حرصوا على نصرته حتى بعد مماتهم، ففي غزوة أحد، وبعد أن تحول مسار المعركة لصالح جيش العدو، استمات الصحابة في الدفاع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدموا الشهيد تلو الشهيد للذود عنه، ويروي الصحابي زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اللحظات الأخيرة في حياة الصحابي سعد بن الربيع[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: إنْ رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف تجدك؟ فجعلت أطوف

(1) سورة الأنفال، الآية: (62).

(2) سعد بن الربيع الخزرجي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أحد زعماء الأنصار، وأحد ممثليهم في بيعة العقبة الثانية.

بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم. فقلت: يا سعد، إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلام، قل له: يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيكم عين تطرف.
وفاضت نفسه من وقته»[1].

نصرة الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تقتصر على الرجال، بل ناصرت الصحابيات الجليلات قائدهن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأموالهن وأرواحهن، وكان للمرأة في الإسلام في زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دور كبير يغفل عن ذكره كثير من المسلمين للأسف، والقارئ الجيد لأحداث السيرة النبوية التي حفظتها كتب الحديث والسير، يدرك تمام الإدراك أن دور المرأة كان دورًا محوريًا وهامًا في بناء الأمة الإسلامية منذ أيامها الأولى، فهذا الدين الذين بين أيدينا ما كان ليصلنا لولا أن سخر الله للإنسانية

(1) «زاد المعاد» لابن القيم.

نساء عظيمات نصر الله بهن دينه ونبيه، فكانت المرأة، خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أول من آمن برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البشر أجمعين، وكانت هي أول من ناصرته في مسيرته الدعوية، وكانت الصحابية سمية بنت خباط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أول الشهداء في تاريخ الإسلام، فلم تكتفِ هذه الصحابية الجليلة بالإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل قدمت روحها في سبيل دعوته.

وأختم حديثي عن هذه الخصلة العظيمة التي تميز بها جيل الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الآية الكريمة، التي تبين كيف أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يتخلوا عن رسولهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ساعة العسرة:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾[1]

(1) سورة التوبة، الآية: (117).



الوفاء

«سَلامٌ عَلى الدُنيا إِذا لَم يَكُن بِها
صَديقٌ صَدوقٌ صادِقُ الوَعدِ مُنصِفا»

(الإمام الشافعي)

حين نزل الموت بالصحابي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أرسلت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها إليه وهو في لحظاته الأخيرة، وعرضت عليه أن يدفن بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذين دفنوا في حجرتها، ولكن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اعتذر بأدب عن قبول هذا العرض!

فما الشيء الذي دفع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى رفض عرض عظيم من هذا العرض؟!

صفة الوفاء من أعظم وأنبل الصفات التي تميز بها جيل الصحابة رضوان الله عنهم، والوفاء كلمة مرادفة للصدق، إلا أن الوفاء أشمل، فالصدق يقتصر على القول، أما الوفاء فيشمل القول والفعل، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم وإيمانهم بقضيتهم، هذه الصفة الإنسانية النبيلة التي تميزوا بها كانت سببًا من أهم أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في مراحلها الأولى، وانتشارها فيما بعد في مختلف أرجاء الأرض.

- في الحديبية، بعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصحابي عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كسفير له إلى قريش للتفاوض مع قادتهم الذين منعوا المسلمين من العمرة، وهناك في مكة أحسن قادة قريش استقبال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان ينتمي إلى عائلة كبيرة من عائلاتهم، فقد كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينتمي إلى بني أمية بن عبد شمس وهم من سادات مكة، وبعد أن استمعوا منه إلى رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تشاور قادة قريش فيما بينهم حول طبيعة الرد على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلال ذلك الوقت عرضوا على عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن يطوف هو بالبيت أثناء

وجـوده في مكـة، فكـان رد صـاحب رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذي النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ردًا حاسمًا وقويًا:

«ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(1).



(1) «معالم التنزيل» للبغوي.

وفي محاولة منها لدفع الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للرجوع إلى المدينة، بعثت قريش بسيد ثقيف عروة بن مسعود الثقفي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وكان عروة[1] كافرًا وقتها، فقابل الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في معسكره في الحديبية، وحاول عروة أن يقنعه بالرجوع من حيث أتى، مشككًا بوفاء أصحابه له إذا ما هاجمته قريش وأحابيشها[2]، وقال للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

---

(1) عروة بن مسعود الثقفي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: زعيم قبيلة ثقيف في زمانه، وأحد وجوه العرب وعظمائهم في الجاهلية، له الكثير من المآثر والأخبار، وهو عظيم القريتين على ما ذُكر لدى بعض المفسرين في تفسيرهم للآية 31 من سورة الزخرف: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾، وقد أسلم في نهاية حياته، واستشهد رميًا بالنبال بعد أن دعا قومه للإسلام.

(2) الأحابيش: هو الاسم الذي كان يطلق على تحالف مكون من سكان مكة ممن لا ينتمون لقبيلة قريش، وكان الأحابيش يتكونون بالأساس من أفراد ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة، لا سيما قبيلة كنانة، وأفراد من أصول غير عربية ينتمون إلى جنسيات مختلفة، لا سيما الحبشة، استقر بهم المقام في مكة بسبب التجارة أو الأسر أو غير ذلك من الأسباب، وقد اختُلِف في سبب تسميتهم بالأحابيش، فقيل لأنهم =

«فإنِّي واللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وإنِّي لَأَرَى أوْشَابًا[1] مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أنْ يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ!»

فغضب أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اتهام عروة للصحابة بالخيانة، فشتمه، وقال له مستنكرًا:

«أنَحْنُ نَفِرُّ عنه ونَدَعُهُ؟!»

وأثناء وجوده في معسكر المسلمين، أخذ عروة يراقب تعامل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرجع إلى مكة، وقال لزعماء قريش مقولة يصف بها وفاء هذه المجموعة الفريدة من البشر:

=

تجمعوا بجبل «حبشي» في مكة، وقيل لأنهم تحبشوا أي تجمعوا فيما بينهم، وقيل أيضًا نسبة للحبشة التي تعود إليها أصول كثير من الأحابيش، وقد كان عدد الأحابيش كبيرًا في مكة، وشكلوا قوة سكانية وعسكرية كبيرة، خاصة وأنهم كانوا في ذلك الوقت منضوين تحت قيادة موحدة ممثلة بالحُليس بن عَلقمة الحارثي.

(1) الأوشاب: أخلاط الناس، الأوباش.

«أيْ قَوْمِ، واللَّهِ لقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوكِ، ووَفَدْتُ علَى قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللَّهِ إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا»[1]

- وفي تلك الأثناء، سرت في معسكر المسلمين شائعة تفيد بأن قريشًا قتلت الصحابي عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعزم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ملاقاة قريش، ودعا صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يبايعوه تحت الشجرة، وبالرغم من أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يخرجوا للقتال، ولم يكونوا يحملون إلا أسلحة خفيفة، أسرعوا لمبايعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت الشجرة، قيل أنهم بايعوه على الموت، وقيل أنهم بايعوه على ألا يفروا[2]، في البيعة الشهيرة التي عرفت ببيعة الرضوان، وقد خلد الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وفاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وموقفهم البطولي في هذه الحادثة:

---

(1) «صحيح البخاري».

(2) «سيرة ابن هشام».

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾[1]

- ولم يقتصر وفاء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في تعاملاتهم مع بعضهم البعض، بل شمل أيضًا تعاملاتهم مع غير المسلمين، وتجاوز ذلك ليصل إلى حد تعاملاتهم مع أعدائهم، فقبل معركة بدر الكبرى مباشرة، كان الصحابيان حذيفة بن اليَمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأبوه اليَمان حُسيل بن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خارج المدينة، وبينما هما في طريقهما قابلهما كفار قريش الذين كانوا يستعدون لقتال المسلمين، فألقوا القبض عليهما بداعي أنهما يريدان الانضمام إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأوضح الصحابيان أنهما إنما يريدان الرجوع إلى المدينة وليس الانضمام للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فوافق كفار قريش على إطلاق سراحهما شريطة أن يقطعا عهدًا وميثاقًا بألا يشتركا في القتال وأن ينصرفا إلى المدينة، فوافقا

(1) سورة الفتح، الآية: (18).

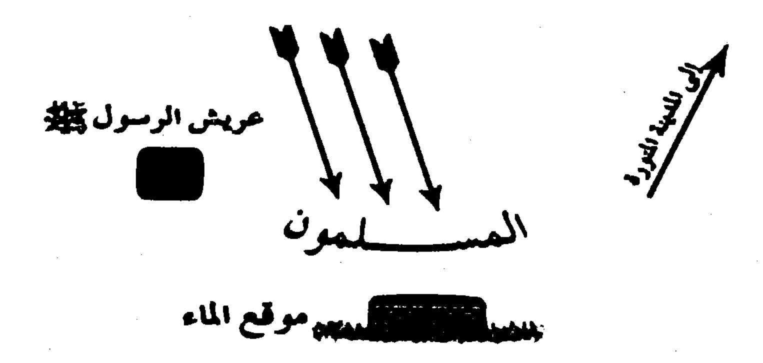
على ذلك الشرط، فأطلق الكفار سراحهما، فأتيا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يستعد للقتال، وأخبراه بما حصل لهما، فطلب منهما الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الالتزام بالعهد الذي قطعاه مع الكفار، وألا يشتركا في القتال، وقال لهما الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»(1)

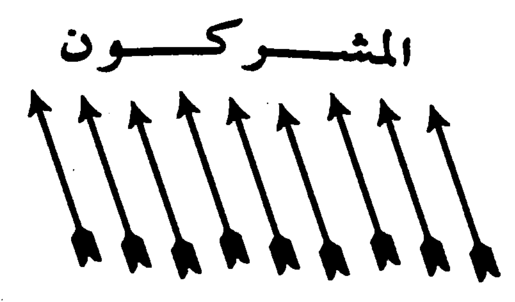
هذه القصة العجيبة تبين لنا كيف أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يحترمون العهود والمواثيق حتى مع ألد أعدائهم، فبالرغم من أن كفار قريش أخذوا العهد من حذيفة وأبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد اعتقالهما دون أي وجه حق، وبالرغم من أن هؤلاء الكفار اضطهدوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لسنوات طويلة في مكة، وبالرغم من قلة عدد المسلمين في غزوة بدر بالنسبة لجيش قريش الذي كان يقدر عدده بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، إلا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث هذين

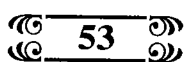
(1) «صحيح مسلم».

الصحابيين على الوفاء بعهدهما للكفار، فكان ذلك سببًا في عدم اشتراكهما في غزوة بدر الكبرى، أعظم معركة في تاريخ الإسلام على الإطلاق.



ميدان المعركة





- خصلة الوفاء التي تميزبها الصحابة تجلت في أوضح صورها في حياة الصحابي عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد فتح الله على عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبواب الرزق والخيرات، وبعد أن كان مهاجرًا لاجئًا من مكة، أصبح عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من كبار أغنياء المسلمين في المدينة، إن لم يكن أغناهم على الإطلاق، ولكنه بالرغم من ذلك ظل وفيًا لذكرى أصحابه الذين رافقوه في مسيرة الإسلام، ففي يوم من الأيام كان صائمًا، فوُضع الطعام أمامه وقت الإفطار، فتذكر عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحابه وأخذ يبكي:

«انَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْفٍ، أُتِيَ بطَعَامٍ، وكانَ صَائِمًا، فَقالَ: قُتِلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ وهو خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ في بُرْدَةٍ، إنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وإنْ غُطِّيَ رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ. وأُرَاهُ قالَ: وقُتِلَ حَمْزَةُ وهو خَيْرٌ مِنِّي، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا ما بُسِطَ، أوْ قالَ: أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا ما أُعْطِينَا، وقدْ خَشِينَا أنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ»(1)

---

(1) «صحيح البخاري».



وبعد وفاة الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تولى عبد الرحمن ابن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مهمة الإنفاق على زوجات صاحبه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان ينفق عليهن بسخاء، وكانت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن دائمات الدعاء له.

نعود الآن إلى السبب الذي دفع عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رفض عرض أمه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأن يدفن في حجرتها بجوار رسول العالمين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعملاقين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا...

إنه الوفاء!

فقد كان لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صديق اسمه عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توفي في السنة الثالثة للهجرة، وقد تعاهد الصديقان على أمر قبل ذلك بسنوات طويلة أراد عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاء به في لحظاته الأخيرة وهو يودع الدنيا، فقال لأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا معتذرًا عن عدم قبوله لعرضها الكريم:

«ما كنت مضيّقًا عليك بيتك، إني كنت عاهدت ابن مظعون أينا مات دفن إلى جنب صاحبه»[1]

ومات عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودفن في مقبرة البقيع بجوار صديقه عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لذلك...

إذا كتب الله لك صلاة في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدر لك زيارة قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسلم عليه أولًا، ثم سلم على رفيق عمره أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي اختار أن يدفن بجواره، وسلم بعدها على الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أرسل إلى أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو يتألم من شدة الطعنات المسمومة التي أصيب بها، يستأذنها بأن يدفن بجوار صاحبيه اللذين خاض معهما رحلة الكفاح والنضال، فأراد أن يكون قريبًا منهما في موته، كما كان قريبًا منهما في حياته، ولا تنسَ أن تدعو لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخير، فقد كان يمكن لهذا الصحابي أن يدفن بجوارهم، ولكنه اختار الوفاء لعهد قطعه قبل ذلك بسنوات

---

(1) «خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي.

طويلة لصديقه، الذي فارقه بجسده، ولكن طيفه ظل ساكنًا في قلبه حتى لحظات حياته الأخيرة... إنه الوفاء الإنساني في أسمى صوره... وفاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.





الفكر المتحرر

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1]

عندما أسلم الصحابي سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حاولت أمه الضغط عليه للعودة إلى دين الآباء والأجداد، مستغلة حبه الشديد لها وبره بها، فأعلنت إضرابها المفتوح عن الطعام والشراب حتى يرجع عن دينه، ويروي سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما حدث مع أمه:

«كُنتُ رَجُلًا بَرًّا بأُمِّي، فلمَّا أسلَمْتُ، قالت: يا سعدُ، ما هذا الذي أراكَ قد أحدَثْتَ؟ لتَدَعَنَّ دِينَك هذا أو لا آكُلُ ولا أشرَبُ حتى أموتَ، فتُعيَّرُبي، فيُقالُ: يا قاتِلَ أُمِّه، فقُلتُ: لا تَفعَلي يا أُمَّهْ، فإنِّي لا أدَعُ دِيني هذا لشَيءٍ، فمَكَثَتْ يومًا وليلَةً لم تأكُلْ فأصبَحَتْ

(1) سورة الشعراء، الآية: (74).

قد جَهِدَتْ، فمَكَثَتْ يومًا وليلةً أخرى لا تأكُلُ، فأصبَحَتْ قد اشتَدَّ جُهدُها، فلمَّا رأيتُ ذلك قُلتُ: يا أُمَّهْ، تَعلمينَ واللهِ لو كانت لك مِئَةُ نفْسٍ، فخَرَجَتْ نفْسًا نفْسًا، ما تَرَكْتُ دِيني هذا لشَيءٍ، فإنْ شِئتِ كُلي، وإنْ شِئتِ لا تأكُلي، فأَكَلَتْ»[1].

لعل من أهم الصفات التي تميزبها جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتي عملت على ارتقائهم سلم المجد والعظمة الإنسانية، وتمكنوا من خلالها من تغيير مجرى التاريخ خلال سنوات قليلة من عمر الأرض، هي صفة الاستقلال الفكري، فقد اختار الصحابة التحرر من كل الموروثات الخاطئة التي ورثوها عن آبائهم، في حين اختار غيرهم التقيد بسلاسل العادات والتقاليد البالية!

وقد تنوعت الأسباب التي منعت كفار قريش من الإيمان بدين الإسلام، فكان الحسد على سبيل المثال سببًا من الأسباب الرئيسة التي دفعت بعضهم إلى الكفر، مثل حالة فرعون الأمة أبي جهل، الذي ملأ الحسد قلبه لانتماء النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى

---

(1) «تفسيرابن كثير».

بني هاشم بن عبد مناف، بينما كان أبو جهل ينتمي إلى بني مخزوم ابن يقظة الذين كانوا ينافسون بني هاشم في المجد، وهذا ما صرح به أبو جهل بنفسه بقوله:

«تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه»[1]

ولكن من تأمل فيما جاء في القرآن والسيرة عن قصص الشعوب والحضارات السابقة، سيجد أن آفة الاتباع الأعمى للموروثات الفاسدة كانت ولا زالت من أهم عوامل إعراض كثير من الناس عن الحق، وأن كثيرًا من الناس فضلوا عدم اتباع الحق ليس بالضرورة لأنهم غير مقتنعين به كفكرة، بل لأنهم وبكل بساطة لا يرغبون في تغيير الباطل الذي ورثوه عن آبائهم!

---

(1) «سيرة ابن هشام».

يقول الله سبحانه وتعالى في وصف مثل هؤلاء:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[1]

ولعل أبا طالب عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبرز الأمثلة على هذه النوعية من البشر، فأبو طالب لم يكن رجلًا شريرًا، فلم يكن كأبي جهل يحسد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الفضل الذي آتاه الله إياه، بل على العكس من ذلك، كان أبو طالب يحب ابن أخيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبًا كبيرًا، ودافع عنه أمام كفار قريش بكل ما يملك من قوة، وضحى من أجله وعانى أثناء حصار الشِّعب، ولكنه وبالرغم من كل ذلك لم يرغب في تبديل المعتقدات التي ورثها، فرفض تغيير دين أبيه عبد المطلب، بالرغم من محاولات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العديدة معه، والتي استمرت حتى آخر لحظة في حياته:

(1) سورة البقرة، الآية: (170).

«لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا عم! قل لا إلهَ إلا الله، كلمةً أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله»(1)

هذه النهاية الحزينة لأبي طالب كانت بسبب خوفه من تغيير موروثاته الثقافية وتجربة ما هو جديد، ولكن أبا طالب كان شخصًا طيبًا لم يعادِ ابن أخيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه جاء بشيء جديد، ولم يضطهد ابنه عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لاتباعه هذا الدين الجديد منذ فجر البعثة، فكان تأثير قناعاته الخاطئة محدودًا عليه وحده، على الرغم من الحزن الشديد الذي خلفه موته كافرًا على نفس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونفوس المسلمين الذين تمنوا

(1) «صحيح البخاري».

وما زالوا يتمنون لو أن رجلًا طيبًا مثله مات على الإسلام.

ولكن الكارثة الكبرى تكون عندما يتولى السلطة السياسية أو الدينية أشخاص ضيقو الأفق، لا يمتلكون طيبة وسماحة أبي طالب، فلا يكتفون بالجمود الفكري وحسب، بل يقومون أيضًا بشن حرب شعواء على كل صاحب فكر جديد من شأنه تغيير الموروثات الخاطئة، أو إضافة شيء جديد فيه خير للبشرية، وقد سيطر مثل هؤلاء الأشخاص على أوروبا في القرون الوسطى، بعد أن استخدموا مراكزهم الدينية المتقدمة في الكنيسة الكاثوليكية، واستغلوا نفوذهم لدى أمراء وملوك أوروبا في قمع كل صاحب فكر جديد يخالف آراءهم، ليعملوا على سجن وقتل وحرق وتعذيب الكثير من العلماء والمفكرين الذين ظهروا في عصر النهضة في أوروبا، مثل ما حصل مع العالم الإسباني ميغيل سيرفيتو «Miguel Serveto»[1]، الذي ظهر في القرن السادس

---

(1) ميغيل سيرفيتو «Miguel Serveto» 1511-1552، هو فيزيائي، طبيب، مترجم، وعالم دين إسباني، تضمنت اهتماماته العديد من العلوم: علم الفلك، وعلم الأرصاد الجوية، والجغرافية، وعلم =

عشر بأفكار مخالفة لتعاليم الكنيسية، فأنكر مبدأ «الثالوث المقدس» الذي يزعم بأن الله يتشكل من ثلاثة أقانيم: «الآب، الابن، الروح القدس»، وألف في ذلك كتابين هما كتاب «أخطاء الثالوث» وكتاب «استعادة المسيحية»، وفي هذين الكتابين فند سيرفيتو عقيدة التثليث، فحاربته الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا، فهرب منها الى أنحاء مختلفة في أوروبا، حتى قبض عليه في سويسرا، فتنافست السلطات الأوروبية المثلثة أيهم يحصل على شرف إعدام هذا المفكر، إلا أن قادة الكنيسة في جنيف السويسرية أصروا على محاكمته على أرضهم، فأصدروا عليه حكمًا مرعبًا بأن تربط كتبه فيه و يحرق حيًا، لينفذ هذا الحكم في 27 من شهر أكتوبر من عام 1553 في مدينة جنيف السويسرية.

=

التشريع، واللاهوت، والرياضيات، وعلم التشريح، والطب بشكل عام. يعد معروفًا في تواريخ بعض من تلك الحقول، خصوصًا في الطب وعلم اللاهوت.

نفس الأمر تكرر مع العالم الإيطالي جاليليو جاليلي[1] الذي حاكمته الكنيسة عام 1633 بتهمة الهرطقة، أي الزندقة والابتداع، وذلك لأنه جاء بعلم جديد يخالف معتقدات الكنيسة، بعد أن أثبت علميًا أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس كما كانت الكنيسة تعتقد، ليدان جاليليو من قبل محكمة تفتيش كاثوليكية تابعة للكنيسة، ويموت بعدها تحت الإقامة الجبرية، قبل أن يثبت العلم الحديث صحة نظرية جاليليو جاليلي بمركزية الشمس، الأمر الذي دفع الكنيسة لتبرئته رسميًا عام 1992 وتقديم اعتذار له من قبل بابا الفاتيكان.

وللإنصاف فإن مثل هذا الإرهاب الفكري الداعي إلى عدم مخالفة الاجتهادات السابقة حتى وإن كانت باطلة، لم يكن محصورًا في الكاثوليكية فقط، بل ظهر في كل دين وملة أناس محدودو الأفق الفكري عملوا على إرهاب كل صاحب فكر مخالف لما يعتقدوه هم، مع التسليم بأن الكنيسة الكاثوليكية

---

(1) غاليليو غاليلي «Galileo Galilei» 1564-1642، عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي ظهر في عصر النهضة.

في القرون الوسطى كانت الأكثر قمعًا وظلامية، ولكن حتى في التاريخ الإسلامي حورب كثير من المصلحين والمجددين المسلمين بسبب آرائهم الفكرية واجتهاداتهم الفقهية التي خالفت في وقتها أصحاب السلطة السياسية والدينية، ونحن لا نتحدث هنا عن الأشخاص الذين ظهروا في تاريخ الإسلام ببدع وأفكار ما أنزل الله بها من سلطان لا تخالف ثوابت الدين وركائزه وحسب، بل تخالف أيضًا أسلوب البحث العلمي المتبع في جميع العلوم، ولا نقصد بالمجددين أولئك الخبثاء الذين يدعون لهدم قواعد الدين الثابتة في الكتاب والسنة بحجة التجديد والإبداع الفكري، وإنما نقصد بهم العلماء والمفكرين الذين كانت لهم اجتهادات علمية وفقهية وآفاق فكرية واسعة تصادمت مع المستبدين من أصحاب النفوذ السياسي والديني في وقتهم، مثل حالة إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ الذي تعرض للاضطهاد والسجن والتعذيب لسنوات طويلة لأنه خالف بعض المعتقدات والآراء الدينية التي تبنتها السلطة السياسية والدينية في زمنه، قبل أن يتم الإفراج عنه بعد إثبات صحة اعتقاده، وفساد اعتقاد

السلطة الدينية السائدة في زمانه ممثلة بالمعتزلة.

والذي يتأمل في قصص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يجد أن لكل واحد منهم قصته الخاصة عن تركه للموروثات والعادات والتقاليد الخاطئة، فترك هذا الجيل المتحرر معتقدات الأجداد الفاسدة، ليتبع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دين الإسلام عن إيمان وقناعة شخصية، غير آبهين برأي المجتمع المتحجر من حولهم، وغير مبالين باتهامات الناس لهم بخيانة تراث الآباء والأجداد، بعد أن تحرر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من التقليد الأعمى الذي منع الكفار من اتباع طريق الحق:

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[1]

وأجمل ما وجدته في تفسير معنى هذه الآية، كلمات مختصرة للإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فنزعوا إلى التقليد من غير حجة ولا دليل»[2]

---

(1) سورة الشعراء، الآية: (74).

(2) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، «تفسير القرطبي».

ومن متابعة لآراء كثير من طلاب العلم في هذا الزمان، وجدت أن بعضًا منهم اختار الانقياد التام لاجتهادات شيوخه، وقد يصل أحدهم إلى مرحلة التقديس لأقوالهم في بعض الأحيان، فلا يقبل نقدًا لاجتهاداتهم الفقهية، ولا يرى رأيًا لأحد غيرهم، بل على العكس من ذلك، قد يكفر أي أحد يحاول انتقاد اجتهاد شيخ من شيوخه، أو يتهمه بالنفاق والجهل، مثل هؤلاء المساكين عليهم أن يتعلموا من مدرسة الصحابة رضي الله عنهم، الذين كان نهجهم قائمًا على الدليل والحجة، فقد أيقن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم منذ وقت مبكر من عمر الإسلام خطورة التقليد الأعمى، وجعلوا الكتاب والسنة ميزانهم الذي يحكمون من خلاله على أمور الدين، ولم يكن لديهم أي حرج بمخالفة اجتهادات كبار رؤوس الصحابة رضي الله عنهم إذا ما رأوا أنهم أخطأوا في تلك الاجتهادات.

فعندما كان الصحابي عبد الله بن عباس رضي الله عنه ينقل للناس قولًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر من الأمور، صُدم بأن البعض صار يجادله بقول آخر عن الصحابي أبي بكر الصديق

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والصحابي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرد عليهم عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باستغراب:

«يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ! أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!»[1]

وصحَّ عن الصحابي عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خالف أباه العملاق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسألة من المسائل الفقهية، وذلك عندما سأله رجل من أهل الشام في مسألة تتعلق بمناسك الحج والعمرة:

«فقال ابن عمرَ: هي حلال. قال الشامي: إن أباك قد نهى عنها. قال ابن عمر: أرأيتَ إن كان أبي قد نهى عنها وصنعها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فقال: لقد صنعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2]

---

(1) ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»، وابن القيم في «زاد المعاد» و«إعلام الموقعين».

(2) النووي، «المجموع شرح المهذب».

وما أحوجنا في هذا الزمان إلى التعلم من مدرسة الصحابة رضوان الله عليهم في الابتعاد عن التقليد الأعمى للأفكار والأشخاص، فالفكر الموروث الذي يقلده بعضنا قد يكون فكرًا فاسدًا يحتاج إلى تغيير، والشيخ الي يتبعه بعضنا هو في نهاية الأمر بشر يصيب ويخطئ في اجتهاداته، وكما ورد عن الصحابي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والتابعي مجاهد بن جبر رَحِمَهُ اللَّهُ، فيما نقله عنهما الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ليس أحد بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(1)

إضافة لهذا كله، فالشيخ الذي يقلده أتباعه بطريقة عمياء يمكن أن يكون جاهلًا يخدع الناس بمظهره وسمته، أو دجالًا يحاول غسل أدمغة أتباعه بمهاراته الخطابية، أو مجرمًا قاتلًا يريد إلصاق جرائمه بالدين للتغطية على أمراضه النفسية التي دفعته للقيام بجرائمه في حق الأبرياء، أو منافقًا خبيثًا يحاول ضرب الإسلام من الداخل عن طريق التشكيك في ثوابته والطعن في

---

(1) البخاري في جزء القراءة: «باب وجوب القراءة للإمام والمأموم».

رموزه، وحتى وإن كان هذا الشيخ من أكثر الناس علمًا ودينًا، فقد يأتي يوم من الأيام ينحرف فيه عن طريق الحق لسبب أو لآخر، وهو ما تكرر ويتكرر في كل زمان ومكان، الأمر الذي قد يعرض أتباعه لفتنة في دينهم بعد سقوطه من أعينهم، لاعتقاد هؤلاء الأتباع أن الإسلام كان يتجسد في شخصه.

وفي نهاية الأمر، فإن الخيار متروك لي ولك، فإما أن نختار أن نكون مثل الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ الذين رفضوا التقليد الأعمى والتمسك بالعادات والتقاليد الفاسدة، وتركوا رأي أي شخص خالف رأيه ما جاء في كتاب الله وسنة رسول محمد صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو نختار الاتباع الأعمى للموروثات والأفكار الفاسدة، وهو نفس الاختيار الذي اختاره القوم الخاسرون الذين وصفهم الله بهذا الوصف:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[1]

---

(1) سورة البقرة، الآية: (170-171).

ولعل قصة الصحابي الفارسي روزبه بن يوذخشان الذي عرف لدى المسلمين باسم سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تختصر حكاية تحرر الصحابة من قيد التقليد الأعمى، فقد حرر هذه الصحابي الشجاع نفسه من عادات وتقاليد الآباء الموروثة عندما وجد أنها مجرد أفكار فاسدة، فترك أهله ووطنه ليسافر في رحلة مثيرة من بلد إلى بلد بحثًا عن الحقيقة، وخلال عشرين عامًا قضاها في تلك المغامرة، التقى سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأشخاص اتبع أفكار بعضهم، ورفض اتباع أفكار بعضهم الآخر، إلى أن وصل في نهاية الأمر إلى جزيرة العرب، ليلتقي هناك بالرجل الذي اتبع أفكاره وتعاليمه ودعوته عن قناعة راسخة، وليس عن وراثة أو تقليد أعمى، ولأنني وجدت في قصة هذا الصحابي ما يختصر الفكر المتحرر الذي تميز به أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رأيت أن أختم الحديث عن هذا الدرس من دروس مدرسة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقصة مغامرته الشيقة التي رواها هو بنفسه للصحابي عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«حـدَّثَني سَلمانُ الفارسيُّ: كنتُ رَجُلًا فارسيًّا مِن أهل

أصبَهانَ، مِن أهلِ قَريةٍ منها، يُقال لها: جَيٌّ، وكان أبي دِهْقانَها[1]، وكنتُ أحَبَّ خَلقِ اللهِ إليه، فلمْ يَزَلْ بي حُبُّه إيَّاي حتى حبَسَني في بَيْتِه كما تُحبَسُ الجارِيةُ، فاجتهَدتُ في المَجوسيَّةِ[2]، حتى كنتُ قاطِنَ النَّارِ الذي يُوقِدُها، لا يَترُكُها تَخبو ساعةً، وكانتْ لأبي ضَيعةٌ عَظيمةٌ، فشُغِلَ في بُنْيانٍ له يومًا، فقال لي: يا بُنَيَّ، إنِّي قد شُغِلتُ في بُنْياني هذا اليومَ عن ضَيعَتي، فاذهَبْ، فاطَّلِعْها.

وأمَرَني ببَعضِ ما يُريدُ، فخرَجتُ، ثُمَّ قال: لا تَحتبِسْ علَيَّ[3]، فإنَّكَ إنِ احتبَستَ علَيَّ كنتَ أهَمَّ إلَيَّ مِن ضَيعَتي، وشَغَلتَني عن كلِّ شيءٍ مِن أمْري.

فخرَجتُ أُريدُ ضَيعَتَه، فمَرَرتُ بكَنيسةٍ مِن كَنائسِ النَّصارى، فسمِعتُ أصْواتَهم فيها وهم يُصلُّونَ، وكنتُ لا أدري

---

(1) رئيس القرية عند الفرس.

(2) المجوسية: وهي الديانة الزرادشتية، وتعرف عند العرب بالديانة المجوسية، وهي ديانة فارسية قائمة على عبادة «أهورا مزدا» «Ahura Mazda» إله النور عند الفرس، لذلك كان الفرس يقدسون الشمس والنار التي يرون أن إلههم يتجلى في ضوئها.

(3) لا تحتبس علي: لا تغب عني، أو لا تتأخر علي.

ما أمْرُ النَّاسِ بحَبسِ أبي إيَّاي في بَيْتِه، فلمَّا مَررتُ بهم، وسمِعتُ أصْواتَهم، دخَلتُ إليهم أنظُرُ ما يَصنَعونَ، فلمَّا رَأيْتُهم، أعجَبَتْني صَلَواتُهم، ورغِبتُ في أمْرِهم، وقُلتُ: هذا واللهِ خيرٌ مِن الدِّينِ الذي نحن عليه.

فواللهِ ما ترَكتُهم حتى غرَبَتِ الشَّمسُ، وترَكتُ ضَيعةَ أبي، ولم آتِها، فقُلتُ لهم: أين أصْلُ هذا الدِّينِ؟ قالوا: بالشَّامِ.

قال: ثُمَّ رجَعتُ إلى أبي، وقد بعَثَ في طَلَبي، وشغَلتُه عن عَمِله كلِّه.

فلمَّا جِئتُه، قال: أيْ بُنَيَّ، أين كنتَ؟ ألمْ أكُنْ عهِدتُ إليك ما عهِدتُ؟

قُلتُ: يا أبَةِ، مرَرتُ بناسٍ يُصلُّونَ في كَنيسةٍ لهم، فأعجَبَني ما رَأيْتُ مِن دِينِهم، فواللهِ ما زِلتُ عندَهم حتى غرَبَتِ الشَّمسُ.

قال: أيْ بُنَيَّ، ليس في ذلك الدِّينِ خيرٌ، دِينُك ودِينُ آبائِك خيرٌ منه.

قُلتُ: كلا واللهِ! إنَّه لخَيرٌ مِن دِينِنا.

قال: فخافني، فجعَلَ في رِجْلي قَيدًا، ثُمَّ حبَسَني في بَيْتِه.

وبعَثتُ إلى النَّصارى، فقُلتُ: إذا قدِمَ عليكم رَكبٌ مِن الشَّامِ، تُجَّارٌ مِن النَّصارى، فأخبِروني بهم.

فقدِمَ عليهم رَكبٌ مِن الشَّامِ، قال: فأخبَروني بهم.

فقُلتُ: إذا قضَوْا حَوائجَهم، وأرادوا الرَّجعةَ، فأخبِروني.

قال: ففعَلوا، فألقَيتُ الحَديدَ مِن رِجْلي، ثُمَّ خرَجتُ معهم حتى قدِمتُ الشَّامَ.

فلمَّا قدِمتُها، قُلتُ: مَن أفضَلُ أهلِ هذا الدِّينِ؟

قالوا: الأُسقُفُ في الكَنيسةِ.

فجِئتُه، فقُلتُ: إنِّي قد رغِبتُ في هذا الدِّينِ، وأحبَبتُ أنْ أكونَ معك، أخدُمُكَ في كَنيستِكَ، وأتعلَّمُ منك، وأُصلِّي معك.

قال: فادخُلْ.

فدخَلتُ معه، فكان رَجُلَ سُوءٍ، يَأمُرُهم بالصَّدقةِ، ويُرغِّبُهم فيها، فإذا جمَعوا إليه منها شيئًا، اكتنَزَه لنَفْسِه، ولم يُعطِه المَساكينَ، حتى جمَعَ سَبعَ قِلالٍ مِن ذَهبٍ ووَرِقٍ، فأبغَضتُه بُغضًا شَديدًا لمَا رَأيْتُه يَصنَعُ، ثُمَّ مات، فاجتمَعَتْ إليه النَّصارى ليَدفِنوه، فقُلتُ لهم: إنَّ هذا رَجُلُ سُوءٍ، يَأمُرُكم بالصَّدقةِ،

ويُرغِّبُكم فيها، فإذا جِئتُم بها كنَزَها لنَفْسِه، ولم يُعطِ المَساكينَ. وأَريتُهم مَوضِعَ كَنزِه سَبعَ قِلالٍ مَملوءةٍ، فلمَّا رَأَوْها قالوا: واللهِ لا نَدفِنُه أبدًا.

فصَلَبوه، ثُمَّ رمَوْه بالحِجارةِ، ثُمَّ جاؤوا برَجُلٍ جعَلوه مَكانَه، فما رَأيْتُ رَجُلًا -يَعني لا يُصلِّي الخَمسَ[1]- أُرى أنَّه أفضَلُ منه، أزهَدُ في الدُّنْيا، ولا أرغَبُ في الآخِرةِ، ولا أدْأَبُ لَيلًا ونَهارًا، ما أعلَمُني أحبَبتُ شيئًا قَطُّ قبلَه حُبَّه، فلمْ أزَلْ معه حتى حضَرَتْه الوَفاةُ.

فقُلتُ: يا فُلانُ، قد حضَرَكَ ما تَرى مِن أمْرِ اللهِ، وإنِّي واللهِ ما أحبَبتُ شيئًا قَطُّ حُبَّكَ، فماذا تَأمُرُني؟ وإلى مَن تُوصِيني؟

قال لي: يا بُنَيَّ، واللهِ ما أعلَمُه إلَّا رَجُلًا بالمَوصِلِ، فائْتِه، فإنَّكَ ستَجِدُه على مِثلِ حالي.

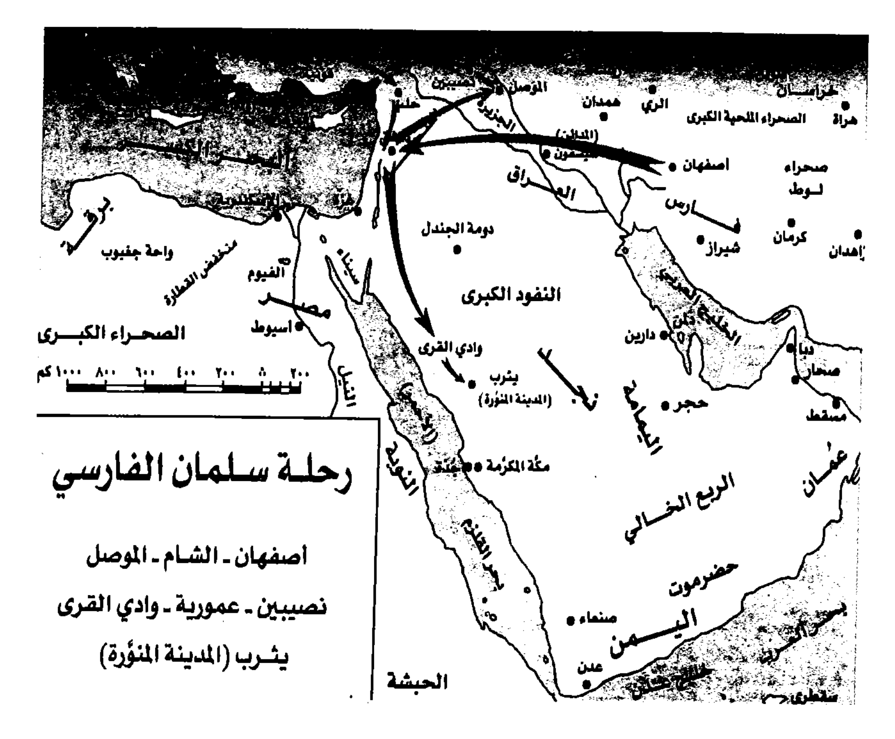
فلمَّا مات وغُيِّبَ، لَحِقتُ بالمَوصِلِ، فأتَيتُ صاحِبَها، فوَجَدتُه على مِثلِ حالِه مِن الاجتهادِ والزُّهدِ، فقُلتُ له: إنَّ فُلانًا أوْصاني إليك أنْ آتيَكَ، وأكونَ معك.

---

(1) يعني باستثناء المسلمين من أتباع محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم أر مثله رجلًا في التقوى والورع.

قال: فأقِمْ، أيْ بُنَيَّ. فأقَمتُ عندَه على مِثلِ أمْرِ صاحِبِه، حتى حضَرَتْه الوَفاةُ، فقُلتُ له: إنَّ فُلانًا أوْصى بي إليك، وقد حضَرَكَ مِن أمْرِ اللهِ ما تَرى، فإلى مَن تُوصي بي؟ وما تَأمُرُني به؟

قال: واللهِ ما أعلَمُ أيْ بُنَيَّ إلَّا رَجُلًا بنَصيبين.



فلمَّا دفَنَّاه، لَحِقتُ بالآخَرِ، فأقَمتُ عندَه على مِثلِ حالِهم، حتى حضَرَه المَوتُ، فأوْصى بي إلى رَجُلٍ مِن أهلِ عَمُّوريَّةَ بالرُّومِ،

فأتَيتُه، فوَجَدتُه على مِثلِ حالِهم، واكتسَبتُ حتى كان لي غُنَيمةٌ وبُقَيراتٌ. ثُمَّ احتُضِرَ، فكَلَّمتُه إلى مَن يُوصي بي؟

قال: أيْ بُنَيَّ، واللهِ ما أعلَمُه بَقِيَ أحدٌ على مِثلِ ما كنَّا عليه آمُرُكَ أنْ تَأتيَه[1]، ولكنْ قد أظَلَّكَ زَمانُ نَبيٍّ يُبعَثُ مِن الحَرَمِ، مُهاجَرُه بينَ حَرَّتَينِ[2] إلى أرضٍ سَبْخةٍ[3] ذاتِ نَخلٍ، وإنَّ فيه

---

(1) يبدو من سياق الكلام أن هؤلاء الرجال الصالحين الذين التقاهم سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأقام عندهم كانوا على النصرانية التوحيدية، لذلك كان عددهم قليل وفي تناقص، وأرى والله أعلم أنهم كانوا ينتمون إلى المذهب الأريسي الذي كان الرومان المثلثون يحاربونه، بإمكان القارئ الكريم الاطلاع أكثر على تاريخ الآريسيين في كتبي: «مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ»، «سر آريوس»، «حرب الفاندال».

(2) الحرة عبارة عن أراضي وعرة تتكون تكثر بها الهضبات والتلاع والمرتفعات والمنخفضات، وتتناثر على سطحها الصخور البركانية القاسية، وقد سميت الحرة بهذا الاسم لأن جزءًا كبيرًا من سطحها مغطى بصخور وحجارة بركانية سوداء تجعلها شديدة الحرارة في الصيف، ووصف صاحب عمورية ينطبق على المدينة المنورة، فالمدينة تحدها من الشرق الحرة الشرقية المسماة بحرة واقم، وفي الغرب تحدها الحرة الغربية وتسمى أيضًا بحرة الوبرة.

(3) أرض سبخة: أرض مستوية تعلوها الملوحة.

عَلاماتٍ لا تَخفى: بيْنَ كَتِفَيه خاتَمُ النُّبوَّةِ، يَأكُلُ الهَديَّةَ، ولا يَأكُلُ الصَّدقةَ، فإنِ استطَعتَ أنْ تَخلُصَ إلى تلكَ البِلادِ، فافعَلْ، فإنَّه قد أظَلَّكَ زَمانُه.

فلمَّا وارَيْناه، أقَمتُ حتى مَرَّبي رِجالٌ مِن تُجَّارِ العَربِ مِن كَلبٍ، فقُلتُ لهم: تَحمِلوني إلى أرضِ العَربِ، وأُعطيكم غُنَيمَتي وبَقراتي هذه؟

قالوا: نعمْ.

فأعطَيتُهم إيَّاها، وحمَلوني، حتى إذا جاؤوا بي وادي القُرى ظلَموني، فباعوني عَبدًا مِن رَجُلٍ يَهوديٍّ بوادي القُرى، فواللهِ لقد رَأيْتُ النَّخلَ، وطمِعتُ أنْ يَكونَ البَلدَ الذي نعَتَ لي صاحِبي! وما حَقَّتْ عِندي، حتى قدِمَ رَجُلٌ مِن بَني قُرَيظةَ وادي القُرى، فابتاعَني مِن صاحِبي، فخرَجَ بي حتى قدِمْنا المدينةَ، فواللهِ ما هو إلَّا أنْ رَأيْتُها، فعرَفتُ نَعْتَها.

فأقَمتُ في رِقِّي، وبعَثَ اللهُ نَبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكَّةَ، لا يُذكَرُ لي شيءٌ مِن أمْرِه، مع ما أنا فيه مِن الرِّقِّ، حتى قدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُباءَ، وأنا أعمَلُ لصاحِبي في نَخلةٍ له، فواللهِ إنِّي لَفِيها

إذ جاءه ابنُ عَمٍّ له، فقال: يا فُلانُ، قاتَلَ اللهُ بَني قَيلةَ[1]، واللهِ إنَّهم الآن لفي قُباءٍ مُجتمِعونَ على رَجُلٍ جاء مِن مكَّةَ، يَزعُمونَ أنَّه نَبيٌّ.

فواللهِ ما هو إلَّا أنْ سمِعتُها، فأخَذَتْني العُرَواءُ -يقولُ: الرِّعْدةُ- حتى ظنَنتُ لأسقُطَنَّ على صاحِبي، ونزَلتُ أقولُ: ما هذا الخَبرُ؟

فرفَعَ مَولايَ يَدَه، فلكَمَني لَكمةً شَديدةً، وقال: ما لك ولهذا، أقبِلْ على عَملِكَ.

فقُلتُ: لا شيءَ، إنَّما سمِعتُ خَبرًا، فأحبَبتُ أنْ أعلَمَه.

فلمَّا أمسَيتُ، وكان عِندي شيءٌ مِن طَعامٍ، فحمَلتُه وذهَبتُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بقُباءٍ، فقُلتُ له: بلَغَني أنَّكَ رَجُلٌ صالحٌ، وأنَّ معك أصحابًا لك غُرَباءَ، وقد كان عِندي شيءٌ مِن الصَّدقةِ، فرَأيْتُكم أحَقَّ مَن بهذه البِلادِ، فهاكَ هذا، فكُلْ منه.

قال: فأمسَكَ، وقال لأصحابِه: كُلوا.

---

(1) بني قيلة: يقصد الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وكان يقال لهم بنو قيلة نسبة لأمهم وهي: قيلة بنت الأرقم.

فقُلتُ في نَفْسي: هذه خَلَّةٌ ممَّا وصَفَ لي صاحِبي.

ثُمَّ رجَعتُ، وتَحوَّلَ رسولُ اللهِ إلى المدينةِ، فجمَعتُ شيئًا كان عِندي، ثُمَّ جِئتُه به، فقُلتُ: إنِّي قد رَأيْتُكَ لا تَأكُلُ الصَّدقةَ، وهذه هَديَّةٌ. فأكَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكَلَ أصحابُه، فقُلتُ: هذه خَلَّتانِ.

ثُمَّ جِئتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يَتبَعُ جِنازةً، وعلَيَّ شَملَتانِ لي، وهو في أصحابِه، فاستَدَرتُ أنظُرُ إلى ظَهرِه، هل أرى الخاتَمَ الذي وَصَفَ؟ فلمَّا رَآني استَدبَرتُه، عرَفَ أنِّي أستَثبِتُ في شيءٍ وُصِفَ لي، فألقى رِداءَه عن ظَهرِه، فنظَرتُ إلى الخاتَمِ[1]، فعرَفتُه، فانكَبَبتُ عليه أُقبِّلُه وأبكي!! فقال لي: تَحوَّلْ.

فتَحوَّلتُ، فقَصَصتُ عليه حَديثي كما حدَّثتُكَ يا ابنَ عَبَّاسٍ، فأعجَبَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يَسمَعَ ذلك أصحابُه»[2].

---

(1) خاتم النبوة: هو الذي كان بين كتفي النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من علامات نبوّته، وهي عبارة عن غُدّة حمراء مثل بيضة الحمامة، فيها شعرات مجتمعات كانت عند كتف النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأيسر. (الهيثمي في كتابه «مجمع الزوائد»).

(2) شعيب الأرناؤوط في تخريج «سير أعلام النبلاء».



لا تكن عبدًا للمال!

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[1]

خرج الصحابي صهيب الرومي[2] مهاجرًا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاتبعه نفر من المشركين، فلما رآهم تناول النبال التي كانت في كنانته، وقال لهم: يا معشر قريش قد تعلمون

(1) سورة البقرة، الآية: (207).

(2) صهيب بن سنان الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أحد السابقين الأوائل في الإسلام، أصله من العراق، ولكن الروم أسروه صغيرًا، فعاش بينهم، ثم عاش في مكة، وعمل في صناعة السيوف، وكون ثروة من ذلك، شهد مع الرسول المشاهد كلها، وبعد طعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلفه الفاروق أن يصلي بالناس لحين الانتهاء من اختيار الخليفة الجديد، اعتزل الفتنة إلى أن توفي في المدينة عام 38 للهجرة.

أني من أرماكم[1]، ووالله لا تصلون إلي حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي منه في يدي شيء، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه. قالوا: فدلنا على مالك ونخلي عنك. وأعطوه العهد على ذلك، فدلهم صهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مكان ماله في مكة، واستطاع بذلك الخلاص منهم والهجرة إلى المدينة، فلما قابله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «ربح البيع أبا يحيى». وأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[2].

الإنسان بطبيعته يحب المال، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطبيعة الإنسانية في كتابه الكريم:

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾[3]

---

(1) أمهركم في الرماية.

(2) وردت هذه القصة بروايات وألفاظ متعددة في «الاستيعاب» لابن عبد البر، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد، و«البداية والنهاية» لابن كثير، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، وغيرهم.

(3) سورة العاديات، الآية: (8).

وكلمة الخير هنا تعني المال، أي أن الإنسان لحب المال لشديد[1]، وهذا الحب للمال ليس مشكلة في حد ذاتها، ولكن المشكلة تظهر عندما تتبدل العلاقة بين صاحب المال وماله، فبدلًا أن يكون هو السيد على ماله، يتحول إلى عبد له، فيسيطر المال على تفكيره، ويحدد له اختياراته، ويرسم له توجهاته، ويقوده في تصرفاته، وفي هذه الحالة يتحول المال من نعمة إلى نقمة، فيفقد الإنسان حريته، بعد أن يفقد راحته النفسية، وربما يصل الأمر إلى فقدانه لإنسانيته، بعد أن يبيع مبادئه وثوابته من أجل المال، في حين كان بإمكانه التصرف بهذا المال بطريقة أخرى، يكون فيها هو السيد لا العبد، فلا يكون المال غاية يعيش الإنسان من أجلها، بل وسيلة يستخدمها للوصول إلى سعادته، سعادة الدنيا والآخرة، وهذا ما فعله الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد كان أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسيادًا على أموالهم، فلم يسمحوا للمال بأن يتحكم بهم، بل تحكموا هم به، ولم يتخلوا عن مبادئهم وثوابتهم خوفًا من فقدان ثرواتهم، أو طمعًا في زيادتها، بل على

---

(1) «تفسير الطبري».

العكس من ذلك تمامًا، عندما كان تحين لحظة يخيرون فيها ما بين اختيار المال أو اختيار حريتهم الفكرية، كان الصحابة يشرون أنفسهم دون أي تردد.

والمتأمل في سيرة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يرى بوضوح كيف كان هذا الجيل الفريد من البشر متحررًا من عبودية المال، ويتعجب من قوة الإيمان وحسن الظن بالله الذي سكن قلوبهم ودفعهم للإنفاق بسخاء على طرق الخير، فقد كان أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدركون أن المال مال الله، وأن الله هو الرزاق الكريم، لذلك سخروا أموالهم في طرق الخير دون أدنى خوف من الفقر والحاجة، وتنافسوا في الإنفاق على الفقراء والمساكين ونصرة الدين، ولك أن تتخيل حجم الإيمان الذي يدفع الإنسان إلى إنفاق نصف ثروته كلها دفعة واحدة في سبيل قضية يؤمن بعدالتها، هذا بالضبط ما قام به الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل غزوة تبوك.

ففي ذلك الوقت، أراد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجهيز جيش المسلمين لصد الخطر الرومي القادم من الشمال، وذلك بعد

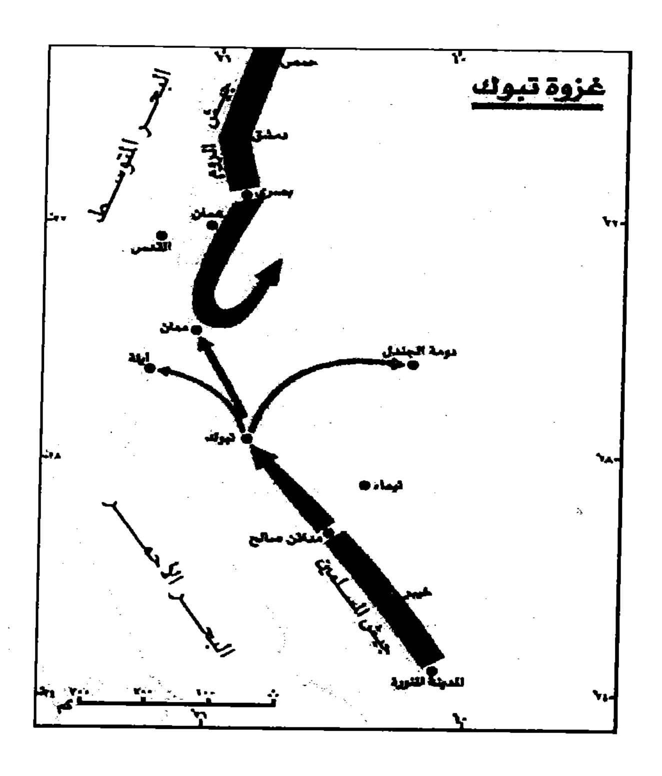
ورود أنباء عن نية هرقل[1] التقدم بقواته الإمبراطورية نحو المدينة لتدمير القوة الإسلامية الناشئة، وتوافق ذلك مع وقت كانت فيه المدينة تعاني من صعوبات اقتصادية كبيرة، فسمي ذلك الجيش بجيش العسرة، فطلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصحابه الإنفاق لتجهيز ذلك الجيش، فأسرع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرجال منهم والنساء للإنفاق، وأخذوا يتنافسون أيهم ينفق أكثر من أخيه، فذهب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجاء بنصف ماله وقدمها للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينافس صديقه أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عمل الخير، فاعتقد أنه سيسبقه في هذه المرة، ولكن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فاجأه في ذلك اليوم، يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«أمرنا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نتصدّق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليومَ أسبقُ أبا بكرٍ إن سبقتهُ يومًا، فجئتُ

---

(1) هرقل: هو الاسم المختصر لفلافيوس هرقل أغسطس «Flavius Heracles Augustus» إمبراطور الإمبراطورية الرومانية البيزنطية الذي وصلته رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بِنِصْفِ مالي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما أبقيتَ لأهلِكَ؟ فقلت: مثْلَه. وأتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكُل ماله، فقالَ له رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما أبقيتَ لأهلك؟ فقال: أبقيتُ لهمُ اللهَ ورسولهُ. فقلت: لا أُسابقكَ إلى شيء أبدا»[1]



---

(1) «المجموع» للنووي.

وفي ذلك اليوم تسابق المسلمون رجالًا ونساءً على نصرة الإسلام بأموالهم، فجاء عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنصف ماله، وجاء العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمالٍ كثير، حتى فقراء المسلمين الذين لا يملكون إلا القليل، لم يكونوا عبيدًا للمال في ذلك اليوم، بل ساهموا كل منهم على قدر استطاعته في التبرع، ويصف الصحابي أبو مسعود عقبة بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما حدث أثناء التجهيز لجيش العسرة:

«لما أُمِرْنا بالصدقة، كنا نتحامل[1]، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه»[2]

أما عثمان بن عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان من أكبر أثرياء المسلمين، فقد ضرب به المثل في الإنفاق في ذلك اليوم، فأنفق بسخاء على تجهيز جيش العسرة، فجاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألفِ دينارٍ في ثوبِهِ، وصَبَّها في حجْرِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعَل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقلِّبُها بيدِهِ ويقولُ:

---

(1) نتحامل: يحمل بعضنا بعضًا.

(2) «صحيح البخاري».

«ما ضَرَّ عثمانَ ما عَمِل بعد اليوم»(1)

المناسبات التي أظهر فيها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تنافسهم في الإنفاق على أعمال الخير مناسبات عديدة لا أهدف من خلال هذه السطور القليلة إلى تعدادها، وإنما أردت التركيز على مبدأ اتبعوه في علاقتهم مع أموالهم، مبدأ التحرر من عبودية المال، مبدأ السيطرة على الفطرة الإنسانية التي توجد داخل كل واحد منا، فطرة حب المال، ليس لإلغاء هذه الطبيعة البشرية، وإنما لتطويعها لما فيه خير الإنسان والإنسانية، تمامًا كما فعل أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالسيادة على المال لا تعني بأي شكل من الأشكال ألا يسعى الإنسان إلى كسب المال الحلال، ولا تعني أن المسلم الصالح هو المسلم الفقير فقط، أو أن الجنة حكر على الفقراء فقط، بل على العكس من ذلك، فتحقيق الأهداف يحتاج إلى قوة، والمال قوة، والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، لذلك حث الشرع الحنيف إلى السعي في طلب الرزق الحلال والسفر من أجل ذلك، فقال الله سبحانه وتعالى

---

(1) شعيب الأرناؤوط، تخريج «زاد المعاد».

في كتابه الكريم:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1]

أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات[2].

وقد استعاذ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من العجز والكسل:

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»[3]

فالعجز عدم القدرة على الحيلة[4] النافعة، والكسل عدم الإرادة لفعلها، فالعاجز لا يستطيع الحيلة، والكسلان لا يريدها[5]،

(1) سورة الملك، الآية: (15).

(2) «تفسير ابن كثير».

(3) «صحيح مسلم».

(4) الحيلة: القوّة والمقدرة.

(5) ابن القيم الجوزية، «إعلام الموقعين».

ولا يختلف عاقلان بأن العجز المادي هو من أقسى مظاهر العجز التي قد تصيب الإنسان، وأن وفرة المال تساعد صاحبها على تغيير واقعه وواقع الناس إلى الأفضل، شريطة أن يتحكم هو بهذا المال، وأن يكون سيدًا عزيزًا على ماله، لا عبد ذليلًا له!





اتباع السنة

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (1)

بعد الهزيمة المذلة التي تعرض لها مشركو قريش في غزوة بدر الكبرى، وهلاك معظم قادتهم الكبار، أراد القادة الجدد لقريش الانتقام من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشكلوا جيشًا جرارًا تكون من ثلاثة آلاف مقاتل، وتوجهوا بهذا الجيش نحو المدينة للانتقام من المسلمين، فوصلت رسالة مستعجلة من قبل الاستخبارات الإسلامية إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تخبره بأنباء تحركات قريش نحو المدينة، فأعلن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حالة النفير العام في أرجاء المدينة لصد خطر الغزاة.

وكعادته في اتخاذ القرارات السياسية، عقد الرسول

---

(1) سورة الحشر، الآية: (7).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلسًا استشاريًا عسكريًا مع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لدارسة الموقف وتحديد الطريق الأمثل لمقاومة الغزاة.

وكان السؤال المطروح هو: أيخرج المسلمون إليهم، أم يمكثوا في المدينة؟

وكان رأي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشخصي ألا يخرج المسلمون من المدينة لملاقاة جيش العدو، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلها الغزاة، قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت[1]، وقد وافقه على هذا الرأي نفر من كبار الصحابة، ولكن مجموعة أخرى منهم، وخاصة من الشباب الذين لم تتح لهم فرصة المشاركة في غزوة بدر، أشاروا على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخرج المسلمون لملاقاة جيش الكفار، وألحوا عليه بهذا الرأي، فنهض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخل بيته ولبس لأمته، واللأمة تعني الدرع أو لباس الحرب، فأحس هؤلاء الصحابة بالندم لإلحاحهم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطلبهم الخروج لملاقاة الأعداء، وكرهوا أن يكونوا قد طلبوا أمرًا لا يحبه

---

(1) «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: يا نبي الله، أنمكث كما أمرتنا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»[1]

وعسكر المسلمون بالشِّعب[2] من موضع جبل أحد المطل على المدينة من الجهة الشمالية، جاعلين ظهرهم الى أحد، ووضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطة محكمة تقلل من تأثير الكثرة العددية لجيش الغزاة، فجعل خمسين من الرماة بإمرة الصحابي عبد الله بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3] في موضع على طريق تؤدي من أحد الى خلف قواته، على جبل صغير يقع بجانب أحد عُرف فيما بعد باسم جبل الرماة.

---

(1) كتاب «السنن الكبرى» للبيهقي.

(2) الشعب هو انفراج بين جبلين.

(3) عبد الله بن جبير الأوسي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أحد الأنصار السبعين الذين شهدوا بيعة العقبة الثانية، وأحد البدريين.

كان هدف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وضع هذه القوة هو حرمان العدو من الالتفات على قواته من الخلف، ولتكون هذه القوة قاعدة أمينة لقواته، تحمي ظهرها وتستند إليها وتستر انسحابها عند الحاجة[1].

---

(1) كتاب «الرسول القائد»، للواء الركن محمود شيت خطاب الموصلي.

وأمر الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتيبة الرماة بالثبات في الموقع الذي حدده لهم، ونهاهم عن التزحزح منه بأي حال من الأحوال دون إذن منه، ووجه لهم قبل المعركة التوجيه الإستراتيجي الآتي:

«احموا ظُهورَنا، فإن رأيتُمونا نُقتَلُ فلا تنصُرونا، وإن رأيتُمونا قد غنِمنا فلا تُشرِكونا»[1]

وفي رواية للبخاري:

«إنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هذا حتَّى أُرْسِلَ إلَيْكُمْ، وإنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وأَوْطَأْنَاهُمْ، فلا تَبْرَحُوا حتَّى أُرْسِلَ إلَيْكُمْ»[2]

كانت خطة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكيمة ودقيقة جدًا، تتجلي فيها عبقرية قيادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعسكرية، فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد

---

(1) «المستدرك على الصحيحين» للحاكم.

(2) «صحيح البخاري».

العدو، فإنه حمي ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمي ميسرته وظهره، حين يحتدم القتال، بسد الثغرة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمي به، إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين، ولا يلتجئ إلى الفرار، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة بأعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدًا أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين.

كانت للفصيلة التي عينها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق[1] ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر،

---

(1) أبو عامر الفاسق: واسمه عبد عمرو بن صيفي الأوسي، من قبيلة الأوس، تنصر في زمن الجاهلية، وكان ذا جاه بين قومه، وسمى بينهم =

حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيحدثوا البلبلة والارتباك في صفوفهم وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث[1].

وبعد مقاومة الصحابة الصلبة لهجوم الغزاة، تحولت مجريات المعركة لصالح جيش المسلمين، وتراجعت قوات قريش هربًا من سيوف المقاومين من الصحابة رضوان الله عليهم، وبدأ بعض المسلمين بجمع الغنائم الكثيرة التي خلفها المشركون وراءهم في ساحة المعركة، فلاحظ الرماة تقهقر المشركين، وبدا لهم أن المعركة انتهت فعليًا بانتصار المسلمين،

=

بأبي عامر الراهب، ولكن بعد هجرة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المدينة واجتماع الناس حوله، أظهر هذا الرجل العداوة لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العداء، فسماه الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأبي عامر الفاسق، وشارك مع كفار قريش في أحد، وبعد ذلك بعث برسالة إلى إمبراطور الروم هرقل يدعوه فيها إلى محاربة المسلمين، وهو الذي أمر المنافقين ببناء مسجد ضرار، وهو أبو الصحابي الذي استشهد في أحد حنظلة غسيل الملائكة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(1) «الرحيق المختوم» للمباركفوري، بتصرف.

فقرر عدد كبير منهم النزول من الجبل لأخذ الغنيمة من ساحة المعركة، فحذرهم قائدهم عبد الله بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من النزول من مواقعهم، وذكرهم بأوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال لهم:

«أنسيتم ما قال لكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»[1]

يروي ابن سعد[2] رَحِمَهُ اللَّهُ ما جرى في ذلك الوقت على جبل الرماة:

«فقال بعض الرماة لبعض ما تقيمون هاهنا في غير شيء؟ فقد هزم الله العدو، فاغنموا مع إخوانكم! وقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لكم: احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم فقال الآخرون: لم يرد رسول الله

---

(1) «صحيح البخاري».

(2) ابن سعد: محمد بن سعد مؤرخ إسلامي من أوائل من كتبوا في المغازي والسير، وهو صاحب كتاب «الطبقات الكبرى» أول ما أُلِّف في هذا الموضوع، وكان أحد النماذج الأولى في موضوع التراجم التي تطورت منهجيته بعد ذلك.

صلى الله عليه وسلم هذا وقد أذل الله العدو وهزمهم فخطبهم أميرهم عبد الله بن جبير وكان يومئذ معلما بثياب بيض فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله وأن لا يخالف لرسول الله أمر فعصوا وانطلقوا فلم يبق من الرماة مع عبد الله بن جبير إلا نفير ما يبلغون العشرة، فيهم الحارث بن أنس بن رافع، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل، وقلة أهله، فكرَّ بالخيل، فتبعه عكرمة بن أبي جهل[1] فانطلقا إلى موضع الرماة، فحملوا على من بقي منهم، فرماهم القوم حتى أصيبوا، ورمى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبله، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جفن سيفه، فقاتلهم حتى قتل»[2]

بعد حدوث هذه الثغرة، تمكن خالد بن الوليد ومن معه من

---

(1) كان خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل من قادة الشباب الذين قدمتهم قريش في هذه المعركة بعد مقتل كبار قادتها في بدر، وقد أسلم الاثنان فيما بعد وتحولا إلى قادة في جيوش الفتوحات الإسلامية.

(2) «الطبقات الكبرى» لابن سعد.

الفرسان من الالتفاف حول جبل الرماة والانقضاض على جيش المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرفها مشركو قريش المنهزمون، فتوقفوا عن القهقرة، ورفعوا لواءهم الذي سقط، وأعادوا الهجوم على المسلمين من جديد، وبعد أن كان المسلمون على وشك الانتصار، أصبح الجيش الإسلامي محاصرًا من قبل الغزاة بسبب تلك الثغرة، وبعد أن رأى المسلمون قوات الغزاة وهي تحاصرهم من الأمام والخلف، عمت الفوضى، وانفضت صفوفهم، وتفرقوا في كل اتجاه، خاصة بعد أن أشيع أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد قتل، فاستغل المشركون هذا الارتباك في صفوف المسلمين للانقضاض عليهم والفتك بهم، فاستشهد عدد كبير من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وأصيب الرسول محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بعد أن أحيط بعدد كبير من المشركين الذين عزموا على قتله، ولكن استماتة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في الدفاع عن قائدهم محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حالت دون ذلك.

ولكن... ما سبب هذه المصيبة التي أصيب بها المسلمون في غزوة أحد؟

لا شك بأن الكثير منا سمع أو قرأ تلك المقولة الشهيرة بأن السبب الرئيس لحدوث مصيبة أحد كان طمع الرماة الذين تركوا الجبل لجمع الغنائم، ولكن الحقيقة أن سبب ما جرى يتعدى مسألة الطمع بالغنائم بمراحل كبيرة، والأمر يتعلق بمسألة أكثر أهمية وأشد خطورة على المسلمين، هذه المسألة تتمثل باعتقاد بعض المسلمين أن بإمكانهم مخالفة أوامر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض الأحيان لأسباب تظهر لهم أنها وجيهة وأكثر منطقية!

لعل الله سبحانه وتعالى أراد للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولنا ولبقية المسلمين في كل زمان ومكان تَعَلم درس من أهم الدروس، فالعاقل هو من لا يكتفي بقراءة قصص التاريخ قراءة سطحية، وإنما يحاول أخذ العبر منها، واستنباط الدروس من بين تفاصيلها المتشعبة.

ويوضح الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك في نهاية سورة يوسف، في آخر آية على الإطلاق في هذه السورة التي استعرضت قصة نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[1]

وأرى والله أعلم أن أهم درس يمكن لنا أن نستفيده مما حصل للمسلمين في غزوة أحد هو:

«وجوب اتباع أوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل زمان ومكان، ومهما كانت الأحوال والظروف»

فمن خلال اتباع أوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضمن المسلم النصر والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، بينما تؤدي مخالفة المسلمين لأوامر رسولهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى التهلكة والخسران، حتى وإن كانت أسباب تلك المخالفة تبدو منطقية وواقعية للبعض، بمعنى آخر: وجوب اتباع السنة، ولا نقصد بالسنة هنا المعنى ما يقصده الأصوليون والفقهاء بالأمور الدينية المستحب اتباعها، مثل السنن الرواتب، وصلاة الضحى، وغير ذلك من الأمور المشابهة التي يثاب فاعلها، ولا يؤثم تاركها، ولكن ما

(1) سورة يوسف، الآية: (111).

نقصده بالسنة هنا هو مصدر التشريع الديني للمسلمين المصاحب لكتاب الله القرآن الكريم، فيقال: هذا أمر ثابت بالكتاب والسنة، بمعنى آخر نقصد بها التعاليم والتشريعات والقوانين الواجبة التي ثبتت عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد أمر الله عَزَّ وَجَلَّ باتباع أوامر رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواضع كثيرة في كتابه الكريم:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1]

وبين الله سبحانه وتعالى أن طاعة الله من طاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾[2]

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: (36).

(2) سورة النساء، الآية: (80).

وحذر من مخالفة أوامر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال في القرآن الكريم:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾[1]

وقال تعالى في محكم التنزيل:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[2]

لذلك فمن كان يؤمن بالقرآن الكريم، فإنه يتحتم عليه تلقائيًا أن يؤمن بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن القرآن الكريم نص صراحة على وجوب اتباع السنة:

---

(1) سورة المائدة، الآية: (92).

(2) سورة النساء، الآيتين: (13-14).

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾[1]

ويخطئ الإنسان إذا اعتقد أن المسلم يمكن أن يكتفي فقط باتباع ما جاء في القرآن الكريم من تشريعات وأحكام.

فالسنة تحتوي على تشريعات وتفصيلات لم ترد في القرآن الكريم، كعدد ركعات الصلوات مثلًا، أو النسبة الواجبة من زكاة المال التي لم ترد مفصلة في كتاب الله.

فالمسلم مطالب باتباع الوحي المنزل من السماء الثابت في الكتاب والسنة على حد سواء، والسنة الواجب اتباعها هي أيضًا وحي فصله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته.

لذلك حذر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته من المنهجية الفاسدة القائمة على الاكتفاء بالقرآن الكريم وترك ما جاء في السنة النبوية:

---

(1) سورة الحشر، الآية: (7).

«لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه وإلا فلا»(1)

وورد أيضًا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا قوله:

«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله»(2)

لذلك فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يدركون تمام الإدراك أن طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي من طاعة الله، فلم يكونوا يقدمون قول أي شخص على الكتاب والسنة، مهما كانت منزلة ذلك الشخص، فطاعة أي إنسان مقترنة بطاعة الله ورسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

---

(1) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه والطحاوي وغيرهم بسند صحيح.

(2) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه وأحمد بسند صحيح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]

وقد ذهب حبر الأمة الصحابي عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن المقصود بـ«أولي الأمر» هم أهل الفقه والدين، وكذا قال نفر من كبار علماء السلف الصالح، مثل مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني: العلماء[2]، ورأى آخرون غير ذلك، ولكن حتى هذه الآية لا تدعو إلى وجوب الطاعة المطلقة لأولي الأمر إن كان المقصود بهم العلماء على قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو كان المقصود بهم غيرهم، فالطاعة المطلقة هي للكتاب والسنة فقط، وإلا لأصبح أمر المسلمين فوضى، فالله عَزَّ وَجَلَّ لم يأمر في هذه الآية بطاعة أولي الأمر المطلقة، فقال: «وأطيعوا الله» وقال: «وأطيعوا الرسول» ولكنه لم يقل: «وأطيعوا أولي الأمر منكم»، أي أنه لم يفردهم بوجوب طاعة المؤمنين لهم، بل جعل طاعتهم موقوفة على طاعة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]،

---

(1) سورة النساء، الآية: (59).

(2) «تفسير ابن كثير».

(3) الشيخ محمد متولي الشعراوي، «تفسير الشعراوي»، مقطع مصور.

فإن خالفوا الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا طاعة لهم من المؤمنين، وهذا ما بينه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلمات مختصرة غاية في الوضوح:

«مَن أمَركم بمعصيةٍ فلا تُطيعوه»[1]

هذا الفهم السليم للإسلام، أدركه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأدركه علماء السلف الصالح، فكانت القاعدة التي تحكم تعاملاتهم مع أي مخلوق خلقه الله هي كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ»[2]

لذلك أوضح أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطاب تسلمه لمنصب الخليفة، أن طاعة الناس له تجب عليهم فقط في حالة طاعته هو أولًا لأوامر الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال:

---

(1) «صحيح ابن حبان».

(2) ابن القيم الجوزية، «إعلام الموقعين عن الله».

«أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَه، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَه فلا طاعةَ لي عليكم»(1)

وأورد الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه كلمات تكتب بماء الذهب للصحابي عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في هذه الكلمات يوضح فيها ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجوب تقديم اتباع سنة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سنة أي أحد من البشر:

«فسُنَّةُ اللهِ وسُنَّةُ رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحقُّ أن تُتَّبعَ من سُنَّةِ فلانٍ»(2)

لذلك...

فإذا ما رأيت أحدهم يطعن بالسنة، أو يشكك في ما صح وثبت فيها، أو يدعو لتركها بالكلية بحجة أن وقائع العصر تغيرت بتغير المكان والزمان، فتذكر ما حصل الرماة يوم غزوة أحد، فإن تأملت قليلًا فيما قام به الرماة الذين خالفوا أمر الرسول

---

(1) ابن كثير في «البداية والنهاية».

(2) «صحيح مسلم».

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الواضح، لوجدت أن ما قاموا به قد يبدو منطقيًا لكثير من الناس، فأفراد هذه المجموعة المرابطة التي دافعت ببسالة عن المسلمين في بداية المعركة، رأوا بأعينهم أن المشركين قد انسحبوا بالفعل، فاعتقدوا أنه لا داعي من البقاء في أماكنهم بعد فرار الغزاة، وأن الوقت قد حان لقطف ثمار النصر وجمع الغنائم، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس معهم على الجبل ليرى ما يروه هم بأعينهم، والزمان الذي أصدر فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوامره لهم كان قبل اشتعال شرارة المعركة، وهو يختلف عن الزمان الذي يعيشون فيه الآن والمعركة على وشك الانتهاء، فقد تغير المكان، وتغير الزمان، وربما كان هذا هو سبب ظنهم أنه لا حاجة لاتباع أوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرفيًا، وأن أوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القاطعة يمكن اتباعها في أماكن وأزمنة محددة، ويمكن مخالفتها في أماكن وأزمنة أخرى!

تذكر هذه القصة، وتذكر ماذا حقق المسلمون في أحد عندما تمسكوا بأوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بداية الأمر، وماذا حل بهم بعد ذلك بسبب مخالفة بعضهم لأوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تنس أن تتذكر الثلة القليلة التي ثبتت على

الجبل طاعة لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا تنسَ أن تتذكر حكايـة الصحابي الذي حرص على الالـتزام بأوامر الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى آخر لحظة في حياته... لا تنسَ أن تتذكر حكاية القائد البطل عبد الله بن جبير الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.





التضحية

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1]

بعد انقشاع غبار المعركة عند جبل أحد، تفقد المسلمون شهداءهم، فوجدوا شابًا ملطخًا بالدماء، مقطوع اليدين، كان ما ظهر من ملامح وجهه يدل على أنه عاش حياة شاقة في هذه الدنيا قبل رحيله منها، فلما أراد المسلمون أن يكفنوه، لم يجدوا سوى بُردة[2] لم تكفِ لتغطية كامل جسده، فكانوا إذا غطوا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا بها رجليه خرج رأسه، فأمرهم

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: (23).

(2) البردة: كساء عبارة عن قطعة طولية من القماش الصوفي السميك الذي يستعمله الناس لستر أجسامهم أثناء النهار كما تتخذ غطاء في أثناء الليل.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغطوا رأسه، وأن يغطوا ما ظهر من رجليه من الإذخِر[1] [2].

ولكن ما حكاية ذلك الشاب الذي رحل عن الدنيا دون كفن يغطي كامل جسده؟ ولماذا حزن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبقية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على رحيله حزنًا شديدًا؟

لمعرفة حكاية ذلك الشاب ينبغي علينا أن نرجع بالزمان لما يزيد عن عشر سنوات من تلك الحادثة، وأن نتحول بالمكان من جبل أحد على تخوم المدينة، إلى الجنوب من المدينة حيث تقع مدينة مكة، فقد كانت قبيلة قريش الحاكمة في تلك المدينة تقسم شؤون مكة بين بطونها، وذلك كنوع من التنظيم الاجتماعي والسياسي بين عشائرها يساهم في حفظ النظام لمكة كأهم مركز ديني وتجاري في جزيرة العرب، فاختصت كل عشيرة كبيرة من عشائر قبيلة قريش بنوع من المهام التنظيمية، وكان من بين تلك المهام:

---

(1) الإذخر: نوع من النبات طيب الرائحة.

(2) الرواية بلفظها الصحيح موجودة في «صحيح البخاري».

- السقاية: وهي سقاية الحجاج وتوفير المياه لهم، وقد كانت هذه المهمة من أهم الوظائف وأشرفها وأصعبها، نظرًا لشح المياه في مكة وصعوبة نقله بين شعاب تلك المدينة ذات التضاريس القاسية لأعداد كبيرة من الحجاج الذين يأتون من مختلف أرجاء الجزيرة العربية، واختص بهذه المهمة بنو هاشم الذين ينتسب إليهم الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو المسؤول عن هذه المهمة.

- الرفادة: وتختص بإطعام الحجيج على نفقة أهل قريش، فكانت الرفادة من الأمور العظيمة التي كان أهل مكة يقومون بها أثناء موسم الحج، وكانوا يجمعون من كل شخص من بينهم المال بقدر طاقته إلى أن يُجمع مال عظيم يجهزون به الطعام للحجيج، وقد اختص بالرفادة بنو نوفل، وإليهم ينتسب المطعم ابن عدي الذي أجار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودافع عنه في مكة، ثم أضيفت هذه المهمة إلى بني هاشم.

- الأشناق: وتختص بتنظيم أمور الديات والغرامات، وقد

اختص بها بنو تيم، ومنهم الصحابي أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والصحابي طلحة بن عبيد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

- القبة والأعنة: وهي بمثابة وزارة الدفاع لقريش، وتعنى بتجهيز الجيش، فالقبة سرادق كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهّزون به الجيش، أما الأعنّة فما كان على خيل قريش في الحرب، وكانت هذه المهمة الحربية من نصيب بني مخزوم، ومنهم خرج الصحابي والقائد العسكري الكبير سيف الله المسلول خالد بن الوليد المخزومي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

- السفارة: وهي مهمة تمثيل قريش لدى القبائل والدول، وكانت من نصيب بني عدي، فكان الصحابي عمر بن الخطاب العدوي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سفيرًا لقريش في الجاهلية.

- القيادة: وهي مهمة قيادة قريش في الحرب، واختص بها بنو عبد شمس، ومنهم الصحابي أبو سفيان بن حرب العبشمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، الذي كان القائد العام لجيش قريش في الجاهلية، وإلى عبد شمس ينتسب بنو أمية الذين قادوا الإمبراطورية الأموية التي امتدت من الأندلس إلى حدود الصين.

- السدانة: وتعني العناية بالكعبة والقيام بشؤونها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها، وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت، واستقبال زوّارها وكل ما يتعلق بذلك، وكان سدنة الكعبة من بني عبد الدار، وكان هم من يحتفظون بمفتاحها[1]، ولم يكتفِ بنو عبد الدار بهذا الشرف، بل استأثروا لأنفسهم أيضًا بعدة مناصب حيوية أخرى في قريش، فكانت لهم مسؤولية القيام بدار الندوة[2] التي كانت بمثابة مجلس الشيوخ لزعماء مكة، إضافة لهذا كله، كان بنو عبد الدار هم حملة لواء

---

(1) ما تزال سدانة الكعبة حتى يوم الناس هذا من مسؤولية عائلة تنتمي لبني عبد الدار، وهم من أحفاد بني شيبة بن شيبة العبدري الذي أعطاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفتاح الكعبة بعد فتح مكة، وأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبقى المفتاح معهم إلى الأبد.

(2) دار الندوة: هي الدار التي كانت تعتبر بمثابة المقر التاريخي لاجتماعات زعماء قريش، ويرجع تاريخها إلى زمن سيد قريش الأسبق قصي بن كلاب أحد أجداد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الشخص الذي أصبحت مكة في زمنه تحت قيادة قبيلة قريش، وذلك بعد أن انتصر قصي- على قبيلة خزاعة التي كانت تحت تسيطر على مكة وشؤون البيت الحرام قبل قريش، وقصي بن كلاب هو الشخص الذي بنى دار الندوة.

قريش في حروبها، وهذا الأمر أكسبهم شرفًا عظيمًا، ليس فقط بين بطون قريش، ولكن أيضًا بين قبائل العرب أجمعين.

ومن هذا البطن الشريف من بطون قريش، من بني عبد الدار بن قصي، ومن بيت واسع الثراء من بيوتهم، خرج شاب وسيم، مترف، رقيق البشرة، يرتدي أحسن الثياب في مكة، ويتعطر بأفضل العطور[1]، هذا الشاب سمع برسالة الإسلام، فأعجب بما تدعو إليه من مبادئ وقيم، وآمن بها عن اقتناع، فأعلن إسلامه بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنوات الأولى من البعثة النبوية، وبعد أن علم أهله بإسلامه، أعلنوا الحرب عليه، وخيروه بين ترك الإسلام، وبين فقدان حياة النعيم التي كان يحياها، فاختار هو التضحية بكل شيء من أجل الإسلام، وعاش ما بقي من حياته في تعب ومشقة ولجوء من مكان إلى مكان مدافعًا عن مبادئه وقضيته، هذا الشاب الذي كان مضرب المثل في مكة بالترف، هو نفسه ذلك الشهيد الذي لم يجد المسلمون ما يغطون به كامل جسده عندما رحل من

---

(1) «الطبقات الكبرى» لابن سعد.

هذه الدنيا، هذا الشاب الجميل كان اسمه مصعب بن عمير العبدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بعد إيمانه بدعوة الإسلام، ضحى مصعب بن عمير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بحياة الترف التي كان يعيشها في مكة، فحاربه أهله، وحاصروه اقتصاديًا، وكان هدفهم من ذلك دفعه لكي يترك دين محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكن مصعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ثبت على الحق، ولم يهتم لكل ما فقده من مال ومتاع الدنيا في سبيل قضيته التي يؤمن بها، وبعد ذلك هاجر مصعب بن عمير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى الحبشة مع المسلمين الذين هاجروا إليها هربًا بدينهم من بطش قريش، فأصبح لاجئًا في بلاد غريبة، بعد أن كان يعيش في وطنه كالملوك!

وفي غزوة بدر الكبرى، اختاره رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مصعب بن عمير العبدري ليحمل لواء المسلمين في تلك المعركة المصيرية، بينما كان أهله من مشركي بني عبد الدار هم حملة لواء الكفار في جيش مكة، نفس الأمر تكرر في غزوة أحد، فكان مصعب بن عمير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو حامل لواء جيش الإسلام، فكان يحمل اللواء بيد، ويحمل سيفه بيده الثانية يقاتل فيه الغزاة.

وبعد وقوع الثغرة عند جبل الرماة، انقض كفار قريش على المسلمين من الأمام والخلف، فدبت الفوضى في جيش المسلمين، ولكن مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثبت في مكانه حاملًا راية الإسلام عاليًا، فتقدم إليه أحد فرسان قريش وكان يدعى ابن قمئة الليثي، فضرب مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالسيف على يده اليمنى التي كان يحمل الراية بها، وقبل أن تسقط الراية على الأرض، أسرع مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلتقطها بيده اليسرى وهو يصيح بكل إيمان وثبات في أرض المعركة:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾

فضربه ابن قمئة على يده اليسرى فقطعها، ولكن مصعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يرضَ أن يرى راية الإسلام تسقط أمام عينيه، فجمع ما تبقى له من طاقة والدماء تسيل منه، واحتضن اللواء وضمه نحو صدره وهو ينادي:

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل»

بعد ذلك، تناول المشرك رمحه، وغرزه في صدر ذلك الشاب

القرشي الجميل الذي ضحى بزهرة شبابه من أجل أن تبقى راية الإسلام مرفوعة، ليغادر مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدنيا لم يأخذ منها سوى كفن لم يغطِ كامل جسده، غادرها مؤمنًا بالله، مضحيًا في سبيل إيمانه، محبًا لمعلمه ورسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان اسمه آخر اسم ردده وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ويُروى[1] أنه عندما قال مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلك الكلمات، لم تكن هذه الآية الكريمة قد نزلت بعد، ونزلت بعد موته:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[2]

ويروي الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقفًا رآه في حياة

---

(1) «طبقات ابن سعد».

(2) سورة آل عمران، الآية: (144).

مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عندما نظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته رضوان الله عليهم إليه، وقد ظهرت عليه مظاهر الفقر، بعد أن ضحى بحياة الترف في سبيل ما يؤمن به، يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«نظر رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مصعبِ بنِ عُميرٍ مُقبِلًا، عليه إهابُ[1] كبشٍ قد تنطَّق[2] به، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انظُروا إلى هذا الَّذي نوَّر اللهُ قلبَه، لقد رأيتُه بين أبوَيْن يُغذُّونه بأطيَبِ الطَّعامِ والشَّرابِ، ولقد رأيتُ عليه حُلَّةً شراها أو شُرِيَت بمائتَيْ درهمٍ، فدعاه حبُّ اللهِ وحبُّ رسولِه إلى ما ترَوْن»[3]

إنها التضحية...

هناك من يعيش حياته كلها يردد كلامًا جميلًا حول أهمية

---

(1) إهاب كبش: جلد الكبش، وهو ذكر الخروف، ويقال للجلد إهاب إذا لم يكن مدبوغًا.

(2) تنطَّق به: شدَّه بحبل في وسطه.

(3) رواه المنذري في «الترغيب والترهيب».

الإيمان بقضية من القضايا، ولا يمل من تذكير الناس بقصص الثبات والتضحية التي سطرها الأتباع الأولون لهذه القضية، ولكنه عندما يتعرض لاختبار حقيقي يتطلب منه التضحية من أجل هذه القضية، التي من المفترض أنه يؤمن بها، يكتشف الناس من حوله أن كلامه كان مجرد شعارات فارغة، وأنه لم يستفد شيئًا من قصص الثبات والتضحية التي كان يرددها على مسامع الناس، لذلك قضى الله سبحانه وتعالى بحكمته أن يفتن الناس، أي أن يختبرهم، لكي تظهر حقيقة إيمان كل من يزعم أنه مؤمن به.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في محكم التنزيل:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[1]

وهناك من الناس من يدعي الإيمان بالله بلسانه، ولكنه

(1) سورة العنكبوت، الآيات: (1-3).

بمجرد تعرضه لتهديد أو تضييق أو أذى من مخلوق، تدفعه شخصيته الجبانة، ونفسه المتعلقة بالدنيا، وخوفه من التضحية بنفسه أو ماله أو منصبه، إلى الاعتقاد بأن ذلك المخلوق كالإله الذي يملك الحياة والموت والرزق والعز والذل له، فيتحول إلى عبد ذليل لذلك المخلوق، ينفذ أوامره مهما كانت، متناسيًا أن الله وحده هو المحي المميت المعز المذل الرازق القادر الخافض الرافع المهيمن الملك!

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في مثل هؤلاء:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾[1]

وهناك صنف من الناس يعلن إيمانه بالله، ليس لقناعة داخلية، بل طمعًا في مصلحة شخصية، فلا يكتفي بعدم

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: (10).

التضحية من أجل ذلك الإيمان، بل يصبح وكأنه يَمُن على الله أن آمن به، فينتظر أن تُحَلَّ كل مشكلاته الحياتية بمجرد إعلانه الإيمان بدعوة الحق، وأن تتحول حياته إلى جنة لا شقاء فيها، فيكون الدليل على وجود الله، من وجهة نظره، هو أن يصب الله عليه المال والصحة والعافية صبًا من السماء، أو أن يأتيه النصر الذي ينتظره، فإذا لم يحدث ما يتمناه، أنكر وجود الله، أو كفر به، أو هاجمته التساؤلات والوساوس عن جدوى إيمانه بالله، أو على أقل تقدير، أساء الظن بالله!

ومن القصص التي تدعو الإنسان للتأمل والتفكير، والتي تحمل في طيات أحداثها معاني كبيرة تبين معنى الإيمان الحقيقي عند البشر، قصة سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، في مقابل قصته مع سحرة فرعون، فقوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا يعيشون بذل وهوان لسنوات طويلة دون أن تظهر منهم مقاومة تذكر، فلما جاءهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، معلنًا رفضه لظلم فرعون، قاصدًا تخليصهم من حياة العبودية التي كانوا يعيشونها، اشتكوا بعد وقت قصير من ظهوره بأن أحوالهم لم تتغير!

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[1]

في المقابل، كان سحرة فرعون يعيشون حياة هانئة، ولم يكونوا من طينة بعض البشر ممن يخدعون أسيادهم وجمهورهم بشعارات إيمانية زائفة، حتى ملكهم الظالم فرعون لم ينافقوه، بل عرضوا عليه خدماتهم مقابل المال، بمعنى أنه كانوا مجرد مرتزقة، ولكنهم كانوا مرتزقة صادقين، على عكس كثير من المرتزقة المنافقين الذين يعيشون في كل زمان ومكان، فكانوا واضحين مع فرعون منذ البداية، ولم يدَّعوا بأنهم سيعملون معه دفاعًا عن الوطن، الذي يزعم فرعون ومن معه أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء لاحتلاله وطرد أهله منه، أي أن السحرة لم يدَّعوا أن دفاعهم أن عملهم كان دفاعًا عن مبدأ أو دين، أو حتى دفاعًا عن فرعون

(1) سورة الأعراف، الآيتين: (128-129).

نفسه، بل كانوا صريحين مع فرعون إلى أبعد الحدود، فطلبوا منه المال نظير خدماتهم، فوعدهم فرعون بذلك في حال انتصروا على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأضاف بأنهم سيكونون مقربين منه كذلك، أي أنهم سيمنحون مناصب عليا في الدولة:

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[1]

ولكن السحرة عندما رأوا بأن ما كان يقوم به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا علاقة له عن قريب أو بعيد بالسحر والشعوذة، واكتشفوا أن دعوته دعوة صدق، أعلنوا إيمانهم بالله على الفور، غير آبهين بفرعون وجنوده الذين كانوا حاضرين يراقبون ما يقومون به، ليلعن هؤلاء السحرة أمام الجميع أن إيمانهم بالله قرار نهائي الذي لا رجعة فيه، مضحين بذلك بكل شيء، ليس فقط بحياتهم الهانئة التي كانوا ينعمون بها قبل إيمانهم، بل بأرواحهم، فكان ردهم على التهديدات الإجرامية التي أطلقها الطاغية فرعون ردًا

---

(1) سورة الأعراف، الآيتين: (113-114).

تفيض منه معاني التضحية والتحدي والثبات:

﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[1]

رحم الله هؤلاء السحرة!

كل هذا الإيمان، وكل هذا الثبات، وهم لم يركعوا لله ركعة في حياتهم، ولكنهم آمنوا بالله بقلوب صادقة، وثبتوا، وضحوا، فخلد الله قصتهم البطولية في كتابه الكريم:

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ (٧١) قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ (٧٣)﴾[2]

---

(1) سورة طه، الآية: (72).

(2) سورة طه، الآيات: (70-73).

ومنذ فجر الدعوة الإسلامية، حرص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يغرس في روح تلاميذه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ معاني الثبات والصمود والتضحية، وذلك لتهيئة هذا الجيل العظيم لما هو قادم من تحديات ومصاعب وتضحيات مرافقة لمسيرة تغيير مجرى التاريخ الإنساني، المسيرة التي سيحمل لواءها فرسان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد رحيل معلمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن بين أوائل البشر الذين آمنوا برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شاب من قبيلة تميم العربية، اسمه خبّاب بن الأرّت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعندما كان خبّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صغيرًا، أسرته قبيلة من القبائل، وباعته في أسواق العبيد في مكة، فاشترته سيدة خزاعية من سكان مكة ليصبح عبدًا لها، وبعد أن بُعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة الإسلام، جذبت هذه الدعوة الجديدة بما تحتويه من مبادئ للعدل والمساواة بين البشر خبابًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأعلن إسلامه، ولأنه كان فقيرًا ووحيدًا ويفتقد للدعم القبلي في مكة، اعتُبر من بين المسلمين المستضعفين الذين لم يكن كفار

قريش يحسبون لهم حسابًا في مكة، فقاموا بتعذيبه تعذيبًا شديدًا لكي يترك دين الإسلام، فكانوا يوقدون النار ثم يسلقونه عليها، ثم يضعونه على الأرض، ويعتلي رجل صدره[1]، وكانت مولاته تأخذ الحديدة المحماة فتضعها على رأسه[2]، هذا الأمر لم يترك ندوبًا ظلت مرسومة على جسده وحسب، بل عملت على فقدان خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأجزاء من لحمه احترقت بالكامل نتيجة لعمليات التعذيب البشع التي كان يتعرض لها.

وبالرغم من كل ذلك، رفض هذا الشاب الفقير ترك إيمانه بدعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستمر على دينه، واستمرت قريش في تعذيبه هو ومن معه من المستضعفين، ويبدو أن الآلام الجسدية والنفسية قد اشتدت عليهم لدرجة لم تعد تحتمل، فذهبوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليشكوا له حالهم، فقالوا له: يا رسول الله، ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟

فقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(1) «الطبقات الكبرى» لابن سعد.

(2) «أسد الغابة» لابن الأثير.

«كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1]

لقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم ما يصيب أصحابه من عذابات جسدية في شوارع مكة، وكان ألمه شديدًا لما يتعرضون له، وكان أصحابه دائمًا نصب عينيه في عمله الدؤوب لإيجاد مخرج لهذا الواقع الصعب الذي يمر به المسلمون في مكة، ولكنه في نفس الوقت كان يخشى عليهم أن يتسلل اليأس إلى قلوبهم في لحظة من اللحظات، أو أن يفقدوا الأمل والإيمان في قضيتهم العادلة نتيجة للظلام والظلم الذي يرونه منتشرًا حولهم، لذلك حرص الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تذكيرهم بأساليب التعذيب البشعة التي كان يتعرض لها المسلمون السابقون من أتباع من

(1) «صحيح البخاري».

سبقه من الأنبياء عليهم السلام، وتذكيرهم بتضحياتهم وثباتهم على كل ما تعرضوا له، وبعد ذلك كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكرهم بالمستقبل المشرق الذي ينتظر هذه الدعوة، وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد بذلك ألا يترك المسلمون مجالًا لأحد من الخلق أن ينال من إيمانهم قيد أنملة، مؤكدًا على مبادئ الإيمان، والتضحية، والثبات، وقد أثبت أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم خير تلاميذ لخير معلم، فضربوا أروع الأمثلة في تلك المعاني الإنسانية النبيلة.

وسبحان الله...

فبالرغم من المصيبة التي أصيب بها المسلمون في غزوة أحد، إلا أن هذه الغزوة بالتحديد كانت أبرز حادثة على الإطلاق ظهر فيها فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الحقيقي لمفهوم التضحية، ليقدموا لنا درسًا من أهم الدروس التي يمكن للمسلمين على مر الأزمنة الاستفادة منها:

- عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان أول شهيد من شهداء أحد الذين ضحوا بأرواحهم من أجل هذا الدين هو

الصحابي عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كان هذا الصحابي من كبار قادة الأنصار، وأحد ممثليهم «نقبائهم» الاثني عشر في بيعة العقبة الثانية، شهد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزوة بدر، فكان له شرف أن يكون أحد البدريين الـ 314، وكان له بنات كثير يرعاهن، وكان عليه دينًا لم يستطع سداده، وبالرغم من ذلك حرص على الاشتراك في غزوة أحد، ويروي الصحابي جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] ما قاله له أبوه الصحابي عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل اندلاع شرارة المعركة في أحد:

«لَمَّا حَضَرَ أُحُدٌ، دَعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(1) جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صحابي من المكثرين لرواية أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يأتي ترتيبه بين الرواة في المرتبة السادسة من حيث عدد الأحاديث التي رواها الصحابة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِنِّي لاَ أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ، غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا، فَأَصْبَحْنَا، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ»[1]

وتقدم عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صفوف المسلمين في غزوة أحد، فكان أول من استشهد في سبيل الله، ويروي جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صدمته عندما عند وداعه الأخير لأبيه، وكيف أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفهم حزنه ومصابه، قبل أن يخبر بأن الملائكة ظللت أبيه بأجنحتها:

«لَمَّا قُتِلَ أَبِي، جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ أَبْكِي، وَيَنْهَوْنِي عَنْهُ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ يَنْهَانِي، فَجَعَلَتْ عَمَّتِي فَاطِمَةُ تَبْكِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَبْكِينَ، أَوْ لاَ تَبْكِينَ، مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ»[2]

ويضيف جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(1) رواه البخاري في «صحيحه».

(2) رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما».

أخبره عن منقبة عظيمة لوالده الشهيد، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

لقيني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لي: يا جابرُ، ما لي أراكَ مُنكَسرًا؟ قلتُ: يا رسولَ اللهِ، استُشْهِدَ أبي وترَكَ عيالًا ودَينًا. قالَ: أفلا أبشِّرُكَ بما لقيَ اللَّهُ بِهِ أباكَ؟ قلت: بلَى يا رسولَ اللَّهِ. قالَ: ما كلَّمَ اللَّهُ أحدًا قطُّ إلَّا من وراءِ حجابٍ، وَكَلَّمَ أباكَ كِفاحًا[2]، فقالَ: يا عَبدي، تَمنَّ عليَّ أُعْطِكَ. قالَ: يا ربِّ، تُحيِيني فأُقتَلُ فيكَ ثانيَةً. فقالَ الرَّبُّ سبحانَهُ: إنَّهُ سبقَ منِّي أنَّهم إليها لا يُرجعونَ. قالَ: يا ربِّ، فأبلِغْ مَن ورائي. قالَ: فأنزلَ اللَّهُ تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[3]

- أنس بن النضر الخزرجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا الصحابي الأنصاري لم يكن من بين الذين أتيحت لهم فرصة المشاركة في غزوة بدر الكبرى، فحزن لذلك، وعاهد الله عهدًا قال فيه:

---

(1) رواه الترمذي وابن ماجه.

(2) كَلَّمَهُ كِفَاحًا: كلمه مُواجَهةً، لَيْسَ بَيْنَهُمَا حِجابٌ وَلَا رَسُولٌ.

(3) سورة آل عمران، الآية: (169).

«غبتُ عن أوَّلِ قتالٍ قاتلَه رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المشرِكينَ، لئنِ اللَّهُ أشهدني قتالًا للمشرِكينَ ليَرينَّ اللَّهُ كيفَ أصنعُ»[1]

وعندما حمي وطيس المعركة، واخترق المشركون صفوف الجيش الإسلامي، وانكشف المسلمون، كان أنس بن النضر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من الذين ثبتوا في أرض المعركة:

«فلمَّا كانَ يومُ أحدٍ، انكشفَ المسلمونَ، فقال: اللَّهمَّ إنِّي أبرأُ إليكَ ممَّا جاءَ بهِ هؤلاءِ - يعني المشرِكينَ - وأعتذرُ إليكَ ممَّا صنعَ هؤلاءِ - يعني أصحابَه»[2]

ويصف الصحابي أنس بن مالك بن النضر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، الذي كان ابن أخ لأنس بن النضر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ما حدث مع عمه:

«فوُجِدَ فيه بِضْعٌ وثمانونَ بينَ ضَرْبَةٍ بسيفٍ، وطَعْنَةٍ برُمْحٍ،

---

(1) رواه الترمذي في «سننه».

(2) رواه الترمذي في «سننه».

ورَمْيَةٍ بسَهْمٍ، فكنا نقولُ فيه وفي أصحابِهِ نَزَلَتْ: فَمِنْهُمْ مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ»[1]

وكان أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقصد في حديثه هذه الآية:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[2]

- أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اسمه سمّاك بن خرشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من قبيلة الخزرج الأنصارية، كان له عصابة حمراء يلبسها في المعارك، وقد نال شرف حمل سيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة أحد، وعندما توجه المشركون نحو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقتله، كان أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بين الفدائيين الذين تولوا مهمة الدفاع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ثبت أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم أحد مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبايعه على الموت[3]، فاحتضن

---

(1) رواه الترمذي في «سننه».

(2) سورة الأحزاب، الآية: (23).

(3) «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليحول ظهره إلى ترس يتلقى بها السهام التي انطلقت نحو رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[1].

- طلحة بن عبيد الله التيمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كان الصحابي طلحة ابن عبيد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من بين أبرز أبطال غزوة أحد، وكان ضمن المجموعة الفدائية التي حمت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من القتل، فقاتل دونه بسيفه، وأصيب عدة إصابات في جسده أثناء دفاعه عن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إلا أنه تحامل على نفسه واستمر في القتال، وبذل مجهودًا لا يكاد يصدق، حتى أنه فقد الوعي من شدة التعب، ومما يُروى عن بطولته في هذه الغزوة أنه رأى سهمًا منطلقًا نحو رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأسرع طلحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لكي يتلقى السهم بيده قبل أن يصل إلى صدر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكانت يد طلحة التي وقى بها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم أحد شلاء[2]، أي مشلولة، بعد أن اختار طلحة بن عبيد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ التضحية بها دفاعًا عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

---

(1) «سيرة ابن هشام».

(2) من رواية البخاري في «صحيحه».

وبسبب شجاعة وثبات الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي فضل المقاومة على الاستسلام أو الهرب، واستماتة من معه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تمكن المسلمون أخيرًا من استعادة توازنهم في أرض المعركة، وأعطى الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر بتنفيذ الخطة البديلة التي وضعها لمثل هذه الحالات، فقد اختار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكانًا يحمي ظهر المسلمين في حالة حدوث أي طارئ، وتمكن المسلمون بالفعل من التمركز في شعب الجبل الذي حرم المشركين من الاستفادة مما حققوه في أرض المعركة، وبعد أن رأوا ثبات المسلمين ورفضهم القاطع للاستسلام، فضلوا الانسحاب من أرض المعركة، دون أن يحققوا النصر العسكري الكاسح الذي جاؤوا من مكة لتحقيقه.





«لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»(1)

(أبو بكر الصديق رضي الله عنه)

عاش المسلمون بعد غزوة أحد أشهرًا صعبة، وكانت هذه الأشهر من أقسى الفترات الزمنية التي مرت على المسلمين في المدينة، بعد أن أظهرت بعض القبائل العربية عداءها الصريح للمسلمين بعد أحد!

---

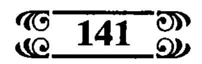
(1) «تاريخ الطبري».

كان من أهم نتائج غزوة بدر الكبرى، حصول المسلمين على هيبة عسكرية كبيرة عند القبائل العربية التي وصلتها أنباء انتصار المسلمين على جيش قريش أمنع قبائل العرب، ولكن بعد ما جرى من أحداث في أحد، فقد المسلمون كثيرًا من تلك الهيبة لدى قبائل جزيرة العرب، فتعرضوا في تلك الفترة الزمنية القاسية لكثير من المؤامرات والهجمات والدسائس من قبل تلك القبائل التي اعتقدت أن المسلمين فقدوا عزيمتهم ولم يعد بمقدورهم الدفاع عن دينهم ومدينتهم، إلا أن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم لم ييأسوا، ولم يسلموا الراية، وأظهروا صلابة وبسالة في التصدي لتلك التحديات الصعبة التي واجهتهم، ولم تعد للمسلمين هيبتهم العسكرية إلا بعد انتصارهم المدوي على تحالف الأحزاب في غزوة الخندق، حينما صرح الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تصريحه الشهير، بعد أن اندحر تحالف الأحزاب الجرار على يد المقاومين المسلمين:

«الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا»[1]

---

(1) «صحيح البخاري».



ومن بين أشد الأحداث وقعًا على المسلمين في تلك الفترة الصعبة التي امتدت بين غزوتي أحد والأحزاب، حادثتان مؤلمتان وقعتا في نفس الشهر، فقد المسلمون فيهما عددًا كبيرًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يفوق عدد شهداء غزوة أحد، هاتان الحادثتان المفجعتان اللتان وقعتا في السنة الرابعة للهجرة هما حادثتا بئر معونة والرجيع:

- حادثة بئر معونة: وسميت بهذا الاسم نسبة لبئر تسمى بهذا الاسم قُتل فيها عدد كبير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غدرًا، فبعد وقت قصير من مصيبة أحد، جاء إلى النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد من سادات قبيلة بني عامر[1] اسمه عامر بن مالك، وكان فارسًا كبيرًا من فرسان العرب، ويلقب بمُلاعب الأسنة، وهو عم أحد شعراء المعلقات الكبار، الذين علق العرب أشعارهم على

---

(1) بنو عامر: هم بنو عامر بن صعصعة، وهم مجموعة كبيرة من القبائل العربية العدنانية التي تنتمي إلى قبيلة هوازن القيسية المضرية، على الرغم من أنها شكلت بحد ذاتها مجموعة مستقلة عن هوازن، ومنازل بني عامر الأصلية في عالية نجد على حدود نجد الجنوبية وشرق الحجاز.

جدار الكعبة، وهو الشاعر العربي الشهير لبيد بن ربيعة العامري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، فأهدى عامرُ بن مالك رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدية، فعرض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه الإسلام، فامتنع عن قبوله، ولكنه طلب من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبعث معه نفرًا من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لكي يعلموا قومه الإسلام، فبعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه سبعين رجلًا من خيرة صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان يقال لهم القُرّاء لكثرة قراءتهم للقرآن، فغدر بهم بنو عامر وقتلوهم جميعًا، ولم يسلم منهم غير صحابي واحد[2] أصيب

---

(1) أدرك لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الإسلام، ووفد على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسلمًا، ولذا يعد من الصحابة رضوان الله عليهم، وبعد إسلامه اعتزل الشعر، وصار يقرأ القرآن عوضًا عن ذلك، فلم يقل في الإسلام إلا بيتًا واحدًا:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقد طُلب من لبيد بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحدى المرات أن يقرأ شيئًا من شعره، فقال: «أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران». («الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني).

(2) الصحابي الناجي من تلك المذبحة هو كعب بن زيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أصيب بجروحٍ وظنوه قد قتل، ولكنه عاش حتى شهد الخندق في العام الخامس للهجرة، فلقي ربه شهيدًا في الخندق.

إصابة بالغة وظنوا أنه قد فارق الحياة، فتمكن من الرجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقص له ما جرى.

وتزامنت هذه الوقعة مرور صحابيين بالقرب من مكان استشهاد الصحابة القراء رضي الله عنهم، فنظرا إلى الطير تحوم على العسكر، فأسرعا إلى أصحابهما، فوجدوهم قد قتلوا، وقاتل أحدهما بني عامر حتى استشهد، وأسر بنو عامر الصحابي الآخر ثم أطلقوا سراحه، وفي الطريق لقي هذا الصحابي رجلين من بني عامر فقتلهما ثأرًا لأصحابه، ولكنه اكتشف بعد مقتلهما أن معهما عهد بالأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن هو يعلم به قبل أن يقتلهما، فذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره بما جرى، وبالرغم من أن القتيلين ينتميان إلى القبيلة التي غدرت بسبعين رجلًا من خيرة المسلمين، اعتبرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بريئين ولا يستحقان القتل، وأصر على أن يدفع الدية لأهلهم من بني عامر الذين غدروا بالمسلمين، وقال للصحابي الذي قتلهم عن طريق الخطأ: «لقد قتلتَ قتيلين لأدِيَنَّهما»[1].

---

(1) «تاريخ الطبري».

- حادثة الرجيع: نسبة إلى ماء الرجيع[1] الذي وقعت عنده الحادثة، ففي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة بئر معونة، جاء وفد من قبيلتي عضل والقارة، وأخبروا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برغبتهم بالإسلام، وطلبوا منه أن يبعث معهم رجالًا من أصحابه لتعليمهم مبادئ الدين الإسلامي، فبعث معهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة من خيرة أصحابه، ولما وصل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى الرجيع، غدر بهم القوم، فاستشهدوا جميعًا، ولم يبقَ في نهاية الأمر سوى صحابيين من الأنصار، أحدهما اسمه زيد بن الدثنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والآخر اسمه خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاقتادهما الخونة إلى مكة لبيعهما لأعدائهما، فاشتراهما نفر من مشركي قريش، وقرروا قتلهما انتقامًا لمن قُتل منهم في بدر، وعندما أخرجوا زيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الحرم إلى التنعيم ليقتلوه، قامت مجموعة من قريش واجتمعت عليه، وكان فيهم أبو سفيان سيد مكة، فقال أبو سفيان عندما أقبل على زيد:

---

(1) الرجيع: موضع ماء لقبيلة هذيل بالحجاز.

«أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في
مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟»

فكان رد صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن الدثنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ردًا قويًا، حيث قال:

«والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه
تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي»

فقال أبو سفيان معلقًا:

«ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب
محمد محمدًا!»[1]

ثم قتل المشركون الصحابي البطل زيد بن الدثنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].
أما خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قرر مشركو مكة أن يقتلوه

(1) وردت رواية أخرى بأن هذا الحوار جرى كان بين أبي سفيان وخبيب بن عدي.
(2) «سيرة ابن هشام».

صلبًا، وأثناء وجوده في منزل آسريه، طلب موسىً، أي شفرة حلاقة، يستحد بها قبل إعدامه، وأثناء ذلك جاء طفل صغير من أبناء آسريه بالقرب منه، فلما رأته أمه يجلس على فخذ خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والشفرة في يده، أصابها الرعب، فانتبه خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لخوف أمه، فقال لها:

«أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك»

وتروي هذه السيدة، التي أسلمت فيما بعد، أمرًا عجيبًا رأته أثناء وجود خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الأسر:

«واللَّهِ ما رَأَيْتُ أسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِن خُبَيْبٍ، واللَّهِ لقَدْ وجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِن عِنَبٍ في يَدِهِ، وإنَّه لَمُوثَقٌ بالحَدِيدِ، وما بمَكَّةَ مِن ثَمَرَةٍ، وكَانَتْ تَقُولُ: إنَّه لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيْبًا»[1]

فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذروني أركع ركعتين، فتركوه فصلى لله ركعتين خفيفتين.

---

(1) «صحيح البخاري».

ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها.

ثم دعا على المشركين بقوله:

«اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبقِ منهم أحدًا»

ثم أنشد شعرًا جاء فيه:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزعِ

وكان خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من سن الركعتين عند القتل[1].

من أجمل الأمور التي يمكن للمرء الاستفادة منها في قراءة قصص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هي فهم الدين على حقيقته كما أنزل على نبي هذا الدين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكثير من الأمور الدينية قد لا تكون واضحة للمسلم البسيط نتيجة لكثرة التأويلات وكثرة الآراء حولها، ولكن هذه الأمور لا تلبث أن تصبح واضحة بشكل تام عندما يرى المسلم أمثلة تطبيقية عليها مرت

(1) القصة وردت في «صحيح البخاري».

في حياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الذين عاشوا في زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونهلوا من نبع الصافي، فتعلموا الدين منه مباشرة دون شوائب!

وما أكثر الدروس والعبر التي يمكن الاستفادة منها في هاتين الحادثتين اللتين مر بهما الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولكن ما يعنينا في هذا الدرس من دروس مدرسة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو الدرس التالي:

حرمة الاعتداء على الأبرياء تحت أي مبرر!

فقد كان بإمكان الصحابي خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتل الطفل الصغير انتقامًا من آسريه، أو على الأقل كان بإمكانه أخذه كرهينة وتهديد أهله بقتله في حالة لم يطلقوا سراحه، ولكنه لم يفعل هذا الأمر الفظيع، لأنه وبكل بساطة كان يعلم أن الأمر محرم في الإسلام، لأن هذا الطفل الصغير بريء، ولا يجوز شرعًا معاقبته على جرائم ارتكبها أهله.

نفس الأمر تكرر بالنسبة لحادثة بئر معونة، فبالرغم من إرهاب وجرائم بني عامر الذين قتلوا سبعين من قُرّاء الصحابة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غدرًا وخيانة، لم يُجِزْ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتل أفراد أبرياء بحجة أنهم ينتمون لتلك القبيلة، أي أنه لا يجوز معاقبة الأبرياء لانتمائهم لقبيلة اعتدى قاداتها أو أفراد منها على الأبرياء المسلمين، وبمفهوم معاصر: لا يجوز الاعتداء على مواطنين أبرياء من دولة اعتدى قاداتها أو أفراد منها على الأبرياء المسلمين، فقد كان بإمكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتبار مقتل الرجلين اللذين ينتميان لبني عامر نوعًا من الانتقام ورد الاعتبار للضحايا المسلمين الذين قتلتهم قبيلتهما، ولكنه لم يفعل، تأكيدًا لمبدأ إسلامي واضح جاء في القرآن الكريم واضح:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]

وقد حرم الإسلام سفك دماء الأبرياء بأي حجة من الحجج، وجاء التأكيد على ذلك في آيات وأحاديث عديدة، وجاء في تطبيقات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ العملية لهذه الآيات والأحاديث، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم:

(1) سورة فاطر، الآية: (18).

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]

وقال الله تعالى في صفات عباده المتقين:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[2]

وقال الله جل وعلا في محكم التنزيل:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)﴾[3]

---

(1) سورة المائدة، الآية: (32).

(2) سورة الفرقان، الآية: (68).

(3) سورة الأنعام، الآية: (151).

واللافت للانتباه في هذه الآيات، أن الله لم يحدد دين وهوية النفس التي لا يجوز إزهاقها بدون حق، أي أنه لم ينه فقط عن سفك دماء الأبرياء من المسلمين فقط، بل شمل هذا النهي كل نفس بريئة بغض النظر عن دين وهوية وجنسية صاحبها، وهذا ما أكده أيضًا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من أحاديثه:

«عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[1]

ولم يكتفِ الرسول صلى الله عليه وسلم بالتحذير من الغدر بالمسالمين من غير المسلمين، بل شمل هذا التحذير أيضًا كل من حصل على عهد بالأمان من قبل المسلمين، حتى المقاتلين منهم، ويشمل هذا الأمر بطبيعة الحال المواطنين من غير المسلمين

---

(1) رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما». متفق عليه.

الذين يعيشون في بلدانهم ذات الأغلبية المسلمة، ويشمل أيضًا الأجانب من غير المسلمين، سواء كانوا من الذين يعيش المسلم معهم بأمان ضمن عهد اجتماعي في بلدان غير مسلمة، أو كانوا من الأجانب المستأمنين في بلاد المسلمين، فهؤلاء لم يدخلوها إلا بإذن، وهذا في حد ذاته عهد بالأمان، فلا يجوز الاعتداء عليهم، لا بالقتل المباشر، ولا بالتفجيرات، ولا بالسرقة، ولا بأي نوع من الاعتداءات التي حرمها الإسلام، فدماؤهم وأموالهم معصومة، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضحًا في تحذيره من ذلك:

«ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقتِه، أو أخذ منه شيئًا بغيرِ طيبِ نفسٍ، فأنا حجيجُه[1] يوم القيامةِ، وأشار رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصبعِه إلى صدرِه، ألا من قتل معاهدًا له ذمةُ اللهِ وذمةُ رسولِه، حرَّم اللهُ عليه ريحَ الجنةِ، وإن ريحَها لتوجدُ من مسيرةِ سبعين خريفًا»[2]

---

(1) فأنا حجيجه: أي: خصمه ومحاجه ومغالبه بإظهار الحجج عليه (يوم القيامة).

(2) «الأجوبة المرضية» للسخاوي.

هذه الآيات والأحاديث فهمها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حق الفهم، فلم يكتفوا بسماعها أو دراستها في مجالسهم، بل طبقوها في حياتها العملية، فضربوا أروع الأمثلة في تعاملاتهم الإنسانية، فنالوا احترام الجميع بأخلاقهم الحضارية الراقية النابعة من إيمانهم الحقيقي بالرسالة الإسلامية، ونقاء فهمهم لتعاليم هذه الرسالة السمحاء.

وفي وصية للصحابي أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكرها الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الشهير «تاريخ الأمم والملوك» المعروف بـ «تاريخ الطبري»، يوصي الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قادة جيوش الفتح الإسلامي للشام بعدة وصايا يظهر من خلالها مدى فهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإنسانية هذا الدين، الجميل في الأمر أنني وأثناء بحثي في مادة هذا الكتاب، وجدت أن جامعة مينيسوتا الأمريكية «University of Minnesota» اختارت هذه الوصية لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتكون من ضمن الوثائق التاريخية التي تضعها في مكتبة حقوق الإنسان التابعة للجامعة «Human Rights Library- University of Minnesota»[1]،

---

(1) http://hrlibrary.umn.edu/arab/IS-6.html

ومما جاء في وصايا الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الوثيقة:

«لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[1]



(1) «تاريخ الطبري».



الثبات الانفعالي

«وأوصاني الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين وُلّيت ألّا أحدث في القوم حدثًا حتى آتيه، فلما دنوت من معسكر القوم، نظرت ضوء نار توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يمد يديه إلى النار مستدفئًا، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فوضعت سهمًا في كبد قوسي، وأردت أن أرميه، ثم ذكرت وصاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمسكت، ولو رميته لأصبته!»(1)

عندما تُوفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أصيب المسلمون بالصدمة، ولم يصدق كثير منهم من هول الصدمة أن رسول الله

(1) «فقه السيرة» للغزالي.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات بالفعل، ووصل الحال برجل معروف بصلابته وشدته ورجاحة عقله مثل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أنه حذر الناس من ترديد خبر وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنادى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالناس:

«إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يمُتْ، ولكنَّه أُرسِل إليه كما أُرسِل إلى موسى فمكَث في قومِه أربعينَ ليلةً، واللهِ إنِّي لَأرجو أنْ يعيشَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى يقطَعَ أيديَ رِجالٍ مِن المُنافِقينَ وألسنتَهم يزعُمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات»(1)

لم تكن تلك اللحظة الإنسانية الصعبة لحظة حرجة في تاريخ الإسلام وحسب، بل كانت من أصعب اللحظات في تاريخ البشرية بأسرها، فمحمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو آخر رسل السماء، ورسالته هي آخر رسالة للبشرية على الإطلاق، فلو فُتن بوفاته أتباعه الأولون، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فسيطرت

---

(1) «صحيح ابن حبان».

أحزانهم ومشاعرهم الإنسانية على عقولهم، وأثرت بذلك على إيمانهم وفهمهم لجوهر هذا الدين، وغيرت من اعتقادهم ببشرية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لضاعت عندها الرسالة السماوية الخاتمة التي حمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مسؤولية إيصالها لبني الإنسان بعد وفاة آخر الأنبياء، ولفقدت البشرية في هذه الحالة المعنى الحقيقي لوجودها، خاصة مع وجود تحديات مصيرية ستهدد كيان الأمة بعد علم أعداء الإسلام بوفاة زعيم المسلمين ورسولهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجيوش إمبراطورية الرومان تتربص للمسلمين في الشمال، وكثير من القبائل العربية في أرجاء جزيرة العرب تنتظر مثل هذه اللحظة لتعلن تمردها وعدوانها، فكان لا بد من وقفة حازمة تعيد للمسلمين إدراكهم لحقيقة الموقف، فكان من رحمة الله ولطفه على البشرية، أن سخر الصحابي أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لإنقاذ الموقف، فبالرغم من أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أقرب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، إلا أنه كان يدرك أن الوضع لا يحتمل أن يغرق المسلمون بأحزانهم، وأنه لا بد لهم من أن يتحكموا بعواطفهم لمواجهة الواقع المحيط

بهم، فبعد أن وصلته أخبار وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذهب أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلقي نظرة الوداع على صديق عمره محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذهب إلى حجرة ابنته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي اختار زوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقضي آخر لحظات عمره بجوارها، فكشف عن وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقبله، وبكى على فراقه، ولكنه تمالك نفسه بسرعة بعدها، وذهب إلى المسلمين الذين كان كثير منهم ما يزال تحت تأثير الصدمة ويعيش حالة من عدم التصديق، فوقف الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمامهم، وقال لهم:[1]

«مَن كانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّ مُحَمَّدًا قدْ مَاتَ، ومَن كانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فإنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، وقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2] وقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن

---

(1) وردت مقولة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «صحيح البخاري».

(2) سورة الزمر، الآية: (30).

يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1]»

الإنسان الطبيعي يتفاعل مع الأمور التي تحدث معه في الحياة، فهو يسعد، ويحزن، ويغضب، ويضحك، ويبكي، على حسب المشاعر التي تنتابه عند كل موقف، والناس يتفاوتون في درجة تفاعلهم مع الأحداث، فمنهم من يطلق العنان لمشاعره لكي تظهر علنًا أمام غيره من الناس، ومنهم من يحاول إخفاء مشاعره عنهم لسبب أو لآخر، وهذا كله أمر عادي يتوافق مع طبائع البشر المختلفة، أما الأمر غير العادي الذي قد يصيب البعض من البشر، هو أن تسيطر عاطفة معينة على كيان الشخص وتفكيره لوقت طويل، ليعيش في عالم آخر بعيدًا عن الواقع الذي يعيش فيه، والذي يحتاج منه إلى تحركات تتناسب مع حجم التحديات التي تواجهه في بقية حياته، وهذه الحالة إن أصابت الأشخاص العاديين فإنها عادة ما تتسبب لهم بمشكلات نفسية خاصة تستدعي العلاج، أما إذا أصابت

(1) سورة آل عمران، الآية: (144).

أشخاصًا ذوي مسؤولية يتحملون مسؤوليات قيادية، أو يقومون بمهمات وظيفية حساسة، فإنها عادة ما تتسبب بكوارث عامة، فردود أفعال الشخص المسؤول بمهمة قيادية ما على الأحداث التي تواجهه، وتفاعله مع المستجدات التي قد تظهر له على السطح فجأة، لا تؤثر نتيجتها على ذلك الشخص فقط، وإنما يكون تأثيرها عامًا وشاملًا، فعلى سبيل المثال، تخيل ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي تولى دفة قيادة المسلمين بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غرق في أحزانه على وفاة قائده وصديقه الذي لازمه لعشرات السنوات، وتخيل لو أن الكآبة سيطرت عليه في ذلك الوقت الصعب من عمر الإسلام والإنسانية، ماذا كان يمكن أن يحدث لدولة الإسلام في تلك الحالة؟!

الثبات الانفعالي، لا يعني قدرة الإنسان على التحكم بمشاعره، وإنما يعني قدرة الإنسان على السيطرة على تفاعلاته مع تلك المشاعر، وهو أمر مهم في حياة كل إنسان، وضروري لكل شخص يتحمل مسؤولية حساسة تتعلق بها أرواح الآخرين، لذلك حرص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهمات السرية

والاستخباراتية على اختيار أفراد معينين من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ممن يتصفون بثبات انفعالي كبير، وكان أبرز صحابي ظهرت فيه هذه الميزة هو حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، حيث كان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتمتع بمهارات استخباراتية خاصة، فلم يكن فقط ماهرًا بطرق جمع المعلومات وتحليلها، ولكنه أيضًا كان يمتلك ثباتًا انفعاليًا كبيرًا يفتقد له كثير من العرب الذين تغلبهم العاطفة بطبعهم في أوقات كثيرة، وكانت لحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مقدرة فائقة على الحفاظ على سرية المعلومات الخطيرة التي يحصل عليها، هذه الصفات كلها وغيرها أهلته ليكون بمثابة مدير الاستخبارات الخاصة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أوكل إليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهمة جمع المعلومات الاستخباراتية من قلب

---

(1) حذيفة بن اليمّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صحابي ابن صحابي، فأبوه هو الصحابي حسل أو حسيل بن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسمي أبو حذيفة باليمّان لأنه لجأ في الجاهلية إلى المدينة المنورة التي كانت تسمى يثرب، وحالف بني عبد الاشهل، وهم بطن من بطون الأوس، فسماه قومه اليمّان، لأنه تحالف مع الأوس الذين كانت أصولهم ترجع إلى اليمن.

صفوف العدو في معركة الأحزاب، واستطاع حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القيام بهذه المهمة بنجاح دون لفت انتباه العدو أو القيام بأي عمل انفعالي من شأنه إفشال تلك العملية، وكذلك أطلع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأسرار خطيرة تتعلق بأسماء المنافقين المزروعين داخل الدولة، وقد أظهر حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن اختيار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له ليكون كاتم أسراره كان اختيارًا موفقًا، فقد احتفظ بتلك الأسرار كما أمره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يطلع بها أحدًا حتى بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجدير بالذكر أن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من أهم أسباب النصر في معركة نهاوند المصيرية التي سقطت على إثرها إمبراطورية فارس الساسانية إلى الأبد، بعد أن أظهر ثباتًا انفعاليًا كبيرًا منذ لحظات المعركة الأولى، فقام بخدعة استخباراتية في بداية المعركة أوهمت الفرس أن القيادة الإسلامية في تلك المعركة لم تصب بأذى، على الرغم من أن القائد العام للمسلمين كان أول من سقط في تلك المعركة.

- في غزوة الأحزاب: اختار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة بن

اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمهمة استخباراتية غاية في الخطورة تتطلب تركيزًا وثباتًا انفعاليًا كبيرًا، فقد كان على حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقتحم صفوف العدو في عتمة الليل، تحت ظروف مناخية قاسية، اجتمعت فيها شدة الريح العاصفة مع برودة ليالي الصحراء القارصة[1]، ليجمع معلومات استخباراتية عن قوات الغزاة المتحالفة، ثم العودة سالمًا إلى معسكر المسلمين في نفس الليلة، وأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن لا يحدث حدثًا، أي أن تقتصر مهمته على جمع المعلومات فقط لا غير، دون القيام بمهمات قتالية، وفعلًا تمكن هذا الفدائي من التسلل إلى معسكر العدو، وهناك وجد نفسه بجانب القائد الأعلى لتحالف قوات الغزاة الأحزاب في ذلك الوقت، وهو زعيم قريش أبو سفيان، وروى حذيفة فيما بعد ما حدث له في تلك الليلة الظلماء بأنه هم بأن يخرج سهمًا ويضرب به قائد الأعداء أبا سفيان، لكنه تذكر وصية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(1) بالرجوع إلى التاريخ الميلادي لغزوة الأحزاب، نجد أن أحداثها وقعت في شتاء عام 627م.

«وأوصاني الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين ولّيت - ألّا أحدث في القوم حدثًا حتى آتيه، فلما دنوت من معسكر القوم، نظرت ضوء نار توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يمد يديه إلى النار مستدفئًا، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فوضعت سهمًا في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت وصاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمسكت، ولو رميته لأصبته.

وأحسست عصف الريح في جنبات المعسكر، لا تقرّ قدرًا ولا نارًا ولا بناءً، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنّكم والله ما أصبحتم بدار مقام، قد هلك الكراع والخف[1]، وأخلفتنا بنو قريظة[2]، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا

(1) الكراع: اسم يجمع الخيل. الخف: اسم يجمع الإبل.

(2) كان بنو قريظة قد أعلنوا انسحابهم من حلف الأحزاب نتيجة لعملية استخباراتية معقدة قام بها الصحابي نعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأمر مباشر من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنّي مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم»[1]

يضيف حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«فلبثتُ فيهم هنيهةً، ثم قمتُ فأتيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قائمٌ يصلي، فأومأَ إليَّ أن ادْنُ، فدنوتُ حتى أرسلَ عليَّ من الثوبِ الذي كان عليه ليُدفئني، فلما فرغ من صلاتِه قال: يا ابنَ اليمانِ اقعد، ما خبرُ الناسِ؟ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، تفرق الناسُ عن أبي سفيانَ، فلم يبقَ إلا في عصبةٍ تُوقِدُ النارَ، وقد صبَّ اللهُ تبارك وتعالى عليهم من البردِ الذي صبَّ علينا، ولكنا نرجو من اللهِ ما لا يرجون»[2]

وما طلع النهار، حتى ارتحل الأحزاب عن تخوم المدينة، جارين معهم أذيال الخيبة والهزيمة، لينتصر المسلمون في تلك

---

(1) «فقه السيرة» للغزالي.

(2) «مجمع الزوائد» للهيثمي، و«المطالب العالية» لابن حجر العسقلاني.

المعركة المصيرية التي تغيرت فيها موازين القوة رأسًا على عقب.

تخيل لو أن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يتحكم بنفسه في هذه المهمة الاستخباراتية، ولو أنه سمح لمشاعره أن تسيطر على تصرفاته، ولو أنه قدم مشاعره الإنسانية على طاعة الله والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقام بقتل أبي سفيان زعيم قريش في غزوة أحد التي استشهد فيها أبوه اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو أن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ترك المجال لمشاعره لكي تتحكم به، تخيل ما الذي كان سيحدث للمسلمين لو أن أبا سفيان قتل قبل أن يعطي أوامره للأحزاب بالانسحاب! وماذا سيكون موقف الكفار المحاصرين لمكة في حالة مقتل قائدهم؟ وماذا كان يمكن أن يحدث لحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه في حال كُشف أمره قبل إنجاز مهمته؟

تأمل فيما قام به الصحابي حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من تغليب طاعة أوامر رسول الله صلى الله عليه على كل شيء، ثم قارن ذلك بما يقوم به بعض المسلمين وبعض المنظمات التي تنسب نفسها للإسلام من تصرفات انفعالية عبثية حرم الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القيام بها تحت أي مبرر!

- في غزوة تبوك: أثناء غزوة تبوك، اجتمع عدد من المنافقين الموجودين في الجيش الإسلامي، ممن كانوا يظهرون إسلامهم كذبًا ويبطنون الكفر، وقرروا القيام بعملية اغتيال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أن الله سبحانه وتعالى أوحى لنبيه بهذا الأمر، فتحرك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبتعدًا عنهم، مصطحبًا معه حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلحقه المنافقون لكي ينفذوا عملية الاغتيال، فرجع إليهم حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رآه المنافقون ظنوا أن أمرهم قد انكشف، فهربوا واختلطوا بين الناس، فأقبل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى أدرك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم كشف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة وعمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن خطة الاغتيال التي كان هؤلاء المنافقون يخططون لها، وصرح بأسماء أعضاء تلك العصابة المجرمة واحدًا واحدًا، وطلب منهما أن يكتما السر، فقال له حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فرفض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الاقتراح، ليس لأنهم لا يستحقون القتل بعد ثبوت خيانتهم وجريمتهم، بل لسبب أكثر أهمية، وهو الخوف على صورة

الإسلام أمام الناس، فلقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أهمية الإعلام، وكان يخشى أن يتم استخدام هذه الحادثة في دعاية ضد الإسلام، وأن يقول الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لذلك قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«أكره أن يتحدث الناس أن محمدًا قد وضع يده في أصحابه يقتلهم»(1)

لقد وضع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعة الإسلام وصورته في المقدمة، هذا هو الدرس الذي أراد أن يعلمنا إياه من تلك الحادثة، قارن هذا الفكر الاستراتيجي السياسي الإعلامي المتقدم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بالفكر العبثي الصبياني المتخلف لبعض المنظمات التي تسيء لصورة الإسلام بعمليات الذبح والحرق والتفجيرات التي تقوم بها في حق الأبرياء من المسلمين وغير المسلمين، ما هي الصورة التي ينقلها أصحاب هذا الفكر عن الإسلام لبقية العالم؟

---

(1) «السنن الكبرى» للبيهقي.

لعل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يعلمنا من خلال هذا التصرف أن المسلم عليه أن يحكم فقط على ظاهر الناس، ويترك أمرهم لله فيما يخفونه في صدورهم، وأن المنافقين كانوا موجودين حتى في عهد النبوة، وسيكونون موجدين بين صفوف المسلمين في كل الأزمنة، فينبغي الحذر منهم، ولكن في نفس الوقت لا يجوز محاسبتهم إلا على ظواهر أعمالهم، وإلا لأصبح القتل على شبهة النفاق فوضى بين المسلمين.

لذلك ترك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنافقين يعيشون بسلام على الرغم من علمه بأسمائهم، في حين تقتل بعض الحركات التي تنسب أفعالها للإسلام الكثير من المسلمين بتهمة أنهم منافقون، هذا الدرس فهمه حذيفة جيدًا، فلم يرضَ أن يكشف أسماء المنافقين بعد موت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل كان يكتفي بعدم الصلاة عليهم إذا ماتوا، ويروي حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه القصة التي جمعته مع الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«قال حُذَيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ماتَ رجلٌ من المنافِقِينَ، فلَم أُصَلِّ عليهِ، فقالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما منَعَك أن تصلِّيَ عليهِ؟

قُلتُ: إنَّهُ منهُم. فقال: أباللهِ منهُم أنا؟ قُلتُ: لا.

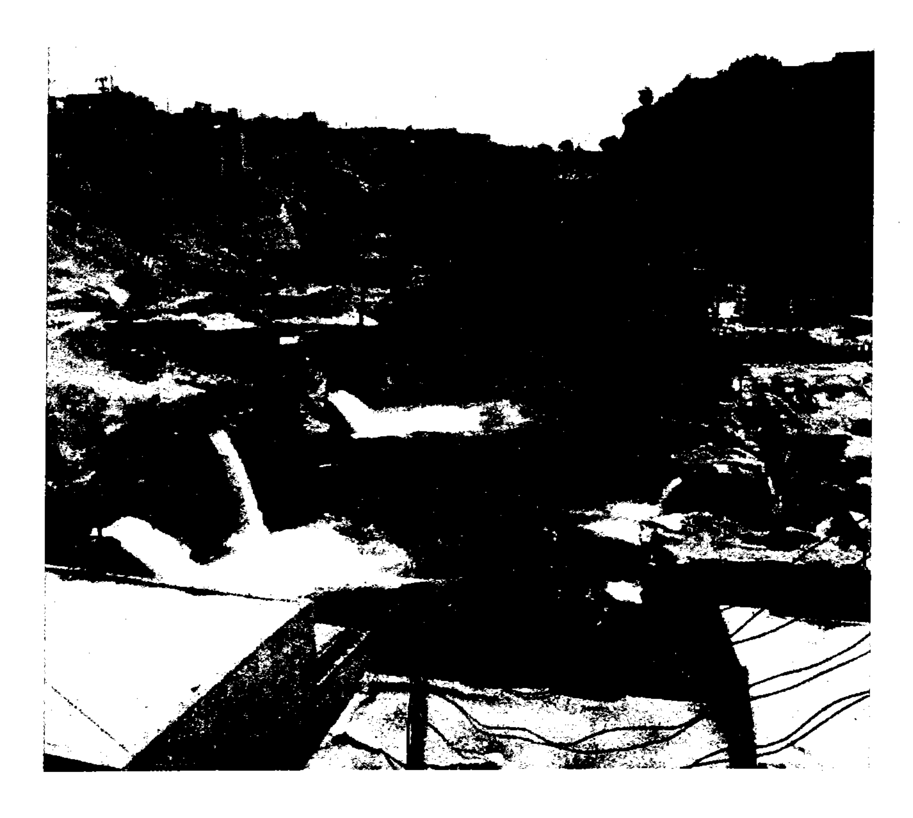
فبكى (عمرُ) رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ»(1)

- معركة نهاوند: هذه المعركة هي من بين أهم الوقائع التي ظهرت فيها صفة الثبات الانفعالي للصحابي حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد استطاع حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من خلالها تغيير مسار الأحداث لصالح المسلمين في هذه المعركة المصيرية، وقصة هذه المعركة المصيرية تبدأ بعد انتصار المسلمين الكبير على جيش الإمبراطورية الساسانية الفارسية في معركة تُستر، فقد كانت مدينة تُستر المحصنة بالأسوار ومجاري الأنهار والشلالات بمثابة الجوهرة المكنونة لإمبراطورية فارس، وكان لفتح المسلمين لهذه المدينة وانتزاعها من القبضة الفرس وقع مدوي في جميع أرجاء الإمبراطورية، فجمع الإمبراطور «يزدجرد الثالث» «Yazdegerd III» مائة وخمسين ألف مقاتل من مختلف أرجاء البلاد، وقرر أن ينقل المعركة إلى أراضي

---

(1) رواه ابن حجر العسقلاني في «المطالب العالية»، والبوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة».

الخلافة الإسلامية، وأن يغزو بجيشه بلاد المسلمين.



فبعث المسلمون برسالة مستعجلة إلى عاصمة الخلافة المدينة يخبرون بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتحركات الفرس الكبيرة، عندها قرر الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقود بنفسه جيوش الخلافة الإسلامية الراشدة لملاقاة العدو قبل أن

يصل إليهم، فأمر فجمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المسلمين وكان فيهم عدد من كبار صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخطب فيهم معلنًا نيته التحرك بنفسه لملاقاة جيش الإمبراطورية الفارسية، إلا أن كبار الصحابة وعلى رأسهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين أشاروا على خليفتهم الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالبقاء في عاصمة المسلمين المدينة لكي يدير أمور الخلافة منها، وكان من أفضل ما قيل في ذلك المجلس الاستشاري هو ما قاله الصحابي علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي قال كلمات بدت منها حكمته ونظرته الاستراتيجية للأمور، فقد قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«يا أمير المؤمنين، هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، إنما هو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعزه وأمده بالملائكة، حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده، وأن مكانك منهم مكان النظام من الخرز، يجمعه ويمسكه فإن انحل تفرق ما فيه

وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا، والعرب اليوم وإن كانوا قليلا، فإنهم كثير عزيز بالإسلام أقم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة، فإنهم أعلام العرب ورؤساءهم وليشخص منهم الثلثان، وليقم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم ولا تشخص الشام ولا اليمن، إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم، سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، ومتى شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها وأطرافها، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا قالوا: هذا أمير العرب وأصلهم، فكان ذلك أشد لكلبهم عليك. وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالصبر والنصر»[1]

---

(1) «تاريخ الطبري»، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير.

فأعجب الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برأي أبي الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: هذا هو الرأي! ثم طلب من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يشيروا عليه فيمن يولي على الجيش الإسلامي في تلك المعركة المصيرية، وطلب منهم أن يكون اختيارهم رجلًا من رجال الفتوحات في العراق وفارس، فقالوا: «أنت أبصر بجندك يا أمير المؤمنين»، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«أما والله لأُوَلِّيَنَّ رجلًا يكون أَوَّلَ الأسِنَّة إذا لقيها غدًا»(1)

- قالوا: من يا أمير المؤمنين؟
- قال: النعمان بن مُقَرِّن.

فأعلن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ موافقتهم على هذا الاختيار، وقالوا: هو لها!

والنعمان بن مقرن المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي اختاره الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمهمة قيادة جيوش المسلمين في هذه المعركة

---

(1) أي أول من يلقى أسنة الرماح في المعركة، كناية على شجاعته وإقدامه.

الفاصلة التي أنهت وجود إمبراطورية فارس فعليًا، هو صحابي بدوي من قبيلة مُزينة الأعرابية، وهي نفس القبيلة التي خرج منها شاعر المعلقة الشهير زهير بن أبي سلمى المزني وابنه الصحابي الشاعر كعب بن زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب قصيدة البردة الشهيرة، بعد هجرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة جاء النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو وجميع إخوته إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معلنين إسلامهم، فكان بيت بني مقرن أول بيت في الإسلام يسلم جميع من فيه، وقد أحضروا معهم إلى المدينة هدية بسيطة استطاعوا جمعها لإهدائها للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيهم نزلت الآية الكريمة:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾[1]

وبعد ذلك عين الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كنائب أول يتسلم قيادة الجيوش الإسلامية في نهاوند في حالة

---

(1) سورة التوبة، الآية: (99).

استشهاد النعمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعد بعده عددًا من المسلمين يتولى كل منهم القيادة في حالة استشهاد القائد الذي يسبقه في التراتبية القيادية، ثم بعث الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رسالة إلى النعمان بن المقرن المزني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرّن، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرًا فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنّهم غَيْضة[1] فإن رجلًا من المسلمين أحبُّ إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك»

وبعد أن وصل جيش المسلمين إلى نهاوند، تحصن الفرس داخل قلعة نهاوند الحصينة، وامتنعوا عن لقاء المسلمين في

(1) الغابة ذات الأشجار الملتفة التي قد تمثل خطورة على الجند.

معركة حاسمة، ونشروا حسك الحديد في الطرق المؤدية إليهم لتكون بمثابة الألغام الأرضية التي تعيق تقدم المسلمين.



وبعد فترة حصار صعبة على المسلمين تزامنت مع فصل الشتاء، استطاع المسلمون جر الفرس لمعركة مباشرة، وقبل المعركة دعا القائد النعمان بن مقرن المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلًا:

«اللهم اعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك»[1]

فبكى المسلمون بعد سماعهم دعاء قائدهم، وأدركوا أنهم يودعون صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأميرهم الذي أحبهم وأحبوه، فتجهزوا للقتال، واستعدوا للزحف، وأمر النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جنده أن ينتظروا حتى يسمعوه يكبر ثلاث تكبيرات، فما إن كبر القائد النعمان بن مقرن المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تكبيرته الثالثة، حتى انقض النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمسلمون معه على صفوف جيش الإمبراطورية الفارسية كالأسود الكاسرة، ومع بداية المعركة، انطلق من جهة المعسكر الفارسي سهمٌ ثاقب اخترق صفوف المقاتلين ليستقر في جنب الأمير الفارس النعمان بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوقع النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الأرض، فأسرع نحوه أخوه نعيم بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ليجد أخاه والدماء تسيل منه، ولكنه تمالك نفسه، فهناك ما هو أهم من أخيه، وأهم من نفسه، إنها راية الإسلام التي لا ينبغي لها أبدًا أن تقع، فتناولها نعيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(1) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير.

من أخيه قبل وقوعها، وسجى أخاه بثوب، وناول الراية إلى الصحابي حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان القائد الاحتياطي للمسلمين، وأخبره نعيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما أصاب أخاه النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحزن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حزنًا شديدًا لما أصاب النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكنه كان يعلم أن الموقف لا يحتمل إحداث أي ارتباك بين صفوف المسلمين، فقال لنعيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«اكتموا مُصاب أميركم حتى ننتظر ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يهن الناس»

وبالفعل، نجحت خطة حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقاتل المسلمون بكل عزيمة وبسالة، ويصف الصحابي المغيرة بن شعبة الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كان من ضمن قادة الجيش، حال جند المسلمين في تلك المعركة:

«والله ما علمت من المسلمين أحدًا يومئذٍ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتل أو يظفر، فحملنا حملة واحدة، وثبتوا لنا، فما كنا نسمع إلا وقع الحديد، حتى أصيب المسلمون بمصائب

كبيرة، فلما رأوا صبرنا وأنّا لا نبرح العرصة[1]، انهزموا، فجعل يقع الواحد فيقع عليه سبعة، بعضهم على بعض في قياد، فيقتلون جميعا، و جعل يعقرهم حسك الحديد الذي وضعوا خلفهم»[2]

وبعد انتصار المسلمين في المعركة، أدرك الصحابي معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميره النعمان بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في لحظاته الأخيرة، فجاءه بقليل من الماء، وغسل عن وجهه التراب، فقال له النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يستجمع قواه:

- من أنت؟
- قال معقل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معقل بن يسار.
- قال النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما فعل الناس؟
- قال معقل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فتح الله عليهم.
- فقال النعمان بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

---

(1) العرصة: الساحة. والمقصود بها ساحة المعركة.

(2) «تاريخ الطبري».

«الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر»[1]

ويروي الصحابي أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ماذا حدث في نهاية هذه الملحمة:

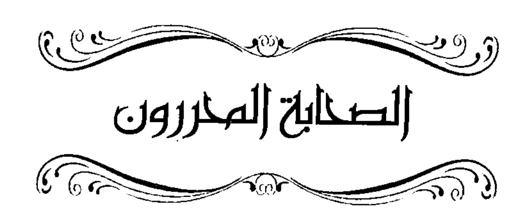
واجتمَع النَّاسُ قالوا: أين الأميرُ؟ فقال مَعقِلٌ: هذا أميرُكم قد أقرَّ اللهُ عينَه بالفتحِ وختَم له بالشَّهادةِ فبايَع النَّاسُ حُذيفةَ بنَ اليَمانِ قال: وكان عمرُ رضوانُ اللهِ عليه بالمدينةِ يدعو اللهَ وينتظرُ مثلَ صيحةِ الحُبْلى، فكتَب حُذيفةُ إلى عمرَ بالفتحِ مع رجُلٍ مِن المسلمينَ، فلمَّا قدِم عليه قال: أبشِرْ يا أميرَ المؤمنينَ بفتحٍ أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهلَه، وأذلَّ فيه الشِّرْكَ وأهلَه، وقال: النُّعمانُ بعَثك؟ قال: احتسِبِ النُّعمانَ يا أميرَ المؤمنينَ. فبكى عمرُ، واسترجَع قال: ومَن ويحَكَ؟ فقال: فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ، حتَّى عدَّ ناسًا، ثمَّ قال: وآخَرينَ يا أميرَ المؤمنين لا تعرِفُهم. فقال عمرُ رضوانُ اللهِ عليه وهو يبكي:

«لا يضُرُّهم ألَّا يعرِفَهم عمرُ، لكنَّ اللهَ يعرِفُهم»[2]

---

(1) «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«المنتظم» لابن الجوزي، و«المستدرك» للحاكم النيسابوري.

(2) «صحيح ابن حبان».



الصحابة المحررون

«كانوا يُستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية»(1)

(الفيلد مارشال برنارد مونتوغمري)

قبل انطلاق شرارة معركة اليرموك المصيرية، وبعد انتصارات المسلمين المتوالية في بلاد الشام على جيوش الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، وعقب فتح المسلمين لكثير من مدن الشام، انسحب الإمبراطور هرقل(2) إلى مدينة أنطاكية

---

(1) مونتغمري، «الحرب عبر التاريخ»، ترجمة وتعليق: العميد فتحي عبد الله النمر.

(2) هرقل: هو الاسم المختصر لفلافيوس هرقل أغسطس «Flavius Heracles Augustus» إمبراطور الإمبراطورية الرومانية البيزنطية الذي وصلته رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

في الشمال، وعزم على الانسحاب الكامل من بلاد الشام[1] والرحيل إلى عاصمة الإمبراطورية القسطنطينية، فقد كان هرقل مقتنعًا في قرارة نفسه بأن حرب الرومان مع المسلمين على الشام حرب خاسرة، وأن الشام، أو بلاد سوريا كما كان هرقل يطلق عليها، ستكون حتمًا أرضًا للمسلمين، وجاءت هذه القناعة الداخلية لهرقل من كونه رجلًا مؤمنًا بما جاء من نبوءات، وقد جاء في تلك النبوءات بأن الشام ستكون ملكًا خالصًا لنبي آخر الزمان[2]، لذلك كان هرقل يعتقد منذ زمن النبوة بأن الشام ستكون ملكًا للمسلمين، وقد أعلن الإمبراطور عن هذا الاعتقاد

---

(1) كان هرقل يؤمن منذ زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الشام ستكون ملكًا للمسلمين، وذلك حسب ما كان يؤمن به من نبوءات عن نبي آخر الزمان، وقد روى أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد إسلامه بأن هرقل صرح له بعد أن وصلته رسالة الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(2) روى ابن سعد في «طبقاته» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سأل كعب الأحبار الذي كان من أهل الكتاب قبل إسلامه: كيف تجد نعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التوراة؟ فقال: نجده «محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، ليس بفحاش ولا صخاب في الأسواق، ولا يكافئ بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر».

بكل صراحة، وهذا ما نقله لنا الصحابي أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد إسلامه، حين روى ما حصل بينه وبين هرقل بعد أن وصلته رسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1] وهو في بلاد الشام، وبالتحديد في القدس، فبعد أن استمع إمبراطور الروم من أبي سفيان عن صفات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال هرقل:

«إن يكن ما تقول فيه حقا، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم[2]، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي[3]»

(1) وصلت رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل أثناء وجوده في، فطلب هرقل أن يجلبوا له نفرًا من قوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكي يستفسر منهم عنه، وتزامن ذلك الحدث مع وجود أبي سفيان في مدينة غزة الفلسطينية في تجارة لقريش، فذهب مع نفر من أصحابه إلى القدس لمقابلة الإمبراطور.

(2) كان هرقل يعتقد أن نبي آخر الزمان سيخرج من بين اليهود.

(3) يقصد القدس وبلاد الشام.

ولكن أثناء وجوده في أنطاكية، دفع عدد كبير من قادته ورجال الدين الإمبراطور الروماني لمواجهة المسلمين في مواجهة فاصلة لانتزاع الشام من أيديهم، وتحت ذلك الضغط، أعلن الإمبراطور حالة النفير العام في أرجاء الإمبراطورية لتكوين جيش جرار لضرب المسلمين، وتزامن ذلك الحدث بعد فترة وجيزة من فتح المسلمين لمدينة حمص، وأثناء ذلك وصلت للقائد العام لقوات المسلمين المجاهدة في الشام الصحابي أبي عبيدة عامر بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معلومات استخباراتية عن التحركات العسكرية الضخمة لجيوش الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، فأسرع القائد أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعقد مجلس شورى عاجل على مستوى القيادة لدراسة هذه التطورات الجديدة، وبحث استراتيجية الرد المناسبة عليها للوصول إلى خطة موحدة لمواجهة الزحف الروماني المتوقع، فقال أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«أما بعد، فإن الله عَزَّوَجَلَّ وله الحمد قد أبلاكم أيها المؤمنون فأحسن البلاء عندكم، وصدقكم الوعد، وأعزكم بالنصر، وأراكم في كل موطن ما تسرون به، وقد سار إليكم عدوكم

من المشركين بعدد كثير، ونفروا إليكم فيما حدثني عيون نفير الروم الأعظم، فجاءوكم برًا وبحرًا حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية[1]، ثم قد وجه إليكم ثلاثة عساكر في كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا الله من البشر، وقد أحببت ألا أغركم من أنفسكم وأن لا أطوي عنكم خبر عدوكم، ثم تشيرون علي برأيكم وأشير عليكم برأي، فإنما أنا كأحدكم»[2]

وبعد الاستماع إلى جميع الآراء، استقر الرأي على انسحاب قوات المسلمين من حمص والتمركز في دمشق، وكان المسلمون قد عاهدوا أهل حمص بأن يحموهم ويدافعوا عنهم مقابل الجزية[3]، ولكنهم بعد أن عزموا على الانسحاب من المدينة

---

(1) يقصد الإمبراطور هرقل.

(2) «الطريق إلى دمشق»، أحمد عادل كمال.

(3) الجزية: مبلغ رمزي من المال مشابه لنظام الضرائب في الدول الحديثة، يدفعه القادر من المواطنين غير المسلمين للدولة مقابل تمتعهم بامتيازات المواطنة ومن أهمها حماية المسلمين لهم من الاعتداءات الخارجية، وتجب الجزيةُ فقط على القادرين من الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء، ولا تجب على المرضى بأمراض شديدة، =

قرروا إعادة ما جمعوه من أموال إلى دافعيها من المواطنين، أمر القائد أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابي حبيب بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، وقال له:

«اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد، ما كنا أخذنا منهم، فإنه لا ينبغي لنا إذ لم نمنعهم[2] أن نأخذ منهم شيئًا، وقال لهم نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم

=

ولا تجب على النساء بشكل عام، حتى ذوات الثروات الطائلة غير مطالبات بدفع أي شيء، ولا على الأطفال، ولا على المجانين، ولا على العبيد، ولا على رجال الدين الرهبان، ويتم جمع الجزية لكي تنفقها الدولة في مسائل الصالح العام، بما فيها الإنفاق على الفقراء والمساكين والمحتاجين من غير المسلمين، في حين يُفرض على القادرين من المسلمين من المواطنين دفع الزكاة التي يفوق مقدارها في حالات كثيرة ما يدفعه غير المسلم القادر من الجزية.

(1) الصحابي حبيب بن مسلمة الفهري القرشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من قادة فتوحات الشام من الصحابة، كان يلقب بحبيب الدروب وحبيب الروم لكثرة المعارك التي خاضها ضد جيوش الإمبراطورية الرومانية، وكثرة دخوله إليهم ونيله منهم، وهو من أبطال معركة اليرموك الفاصلة.

(2) نمنع بلادكم: نحميها، ونمنعها من الاعتداءات.

من الصلح لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما رددنا عليكم أموالكم أنا كرهنا أن نأخذ بأموالكم ولا نمنع بلادهم، ولكنا نتنحى إلى بعض الأراضي ونبعث إلى إخواننا فيقدموا علينا، ثم نلقي عدونا، فنقاتلهم فإن أظفرنا الله بهم وفينا لكم بعهدكم، إلا أن لا تطلبوا ذلك».

وأصبح الصباح فأمر، أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برحيل جيش المسلمين إلى دمشق، واستدعى حبيب بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القوم الذين كانوا أخذ منهم الجزية فرد عليهم مالهم وأخبرهم بما قال أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخذ أهل حمص يقولون:

«ردكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا علينا، بل غصبونا، وأخذوا ما قدروا عليه من أموالنا، لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم».

وبعد ذلك، التقى المسلمون والرومان في معركة اليرموك، لينتصر المسلمون بجيشهم الصغير في هذه المعركة الفاصلة التي

أنهت فعليًا الوجود الإمبراطوري الروماني الذي استمر قبل ذلك لمئات السنين في بلاد الشام.



المكان الذي وقعت فيه أحداث معركة اليرموك الفاصلة

هناك العديد من القصص التي تتحدث عن سماحة الصحابة وعدلهم في تعاملاتهم مع شعوب الأراضي التي كانت تنضم لجسد الخلافة الإسلامية، ولكن هناك تساؤلات يطرحها

البعض حول طبيعة وأهداف الفتوحات الإسلامية بشكل عام وفتوحات الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بشكل خاص:

- لماذا خرج الصحابة أصلًا بجيوشهم من أرضهم في الجزيرة العربية ولم يكتفوا بإرسال الدعاة لنشر الإسلام دون الحاجة إلى قتال ومعارك؟

- هل انتشر الإسلام في عهوده الأولى بالفعل بسبب مبادئه التي اقتنع بها الناس كما يقول المسلمون؟ أم أنه انتشر خارج الجزيرة العربية بحد السيف والحروب التي قام بها الصحابة؟

- هل كانت الفتوحات الإسلامية التي قام بها الصحابة حروبًا من أجل نشر الدين وتحرير الناس كما يردد المسلمون؟ أم أنها كانت احتلالًا عربيًا مغلفًا بطابع ديني لكسب الشرعية الأخلاقية التي تبرر استغلال أراضي وخيرات البلدان الأخرى واستعباد شعوبها وأخذ الجزية والسبايا منهم؟

- إذا كان المسلمون بالفعل يؤمنون بمبدأ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]، فلماذا خرجت جيوش الصحابة إلى بلاد الشام الشام

---

(1) سورة البقرة، الآية: (256).

والعراق وبلاد فارس ومصر وشمال أفريقيا وغيرها من الأراضي؟ وماذا حصل للسكان الأصليين لكل تلك البلدان؟

هذه الأسئلة، وإن كانت قاسية في بعض تعابيرها ومفرداتها، هي أسئلة مطروحة بالفعل من قبل المشككين بتاريخ الإسلام، وبغض النظر عن هوية من يطرحها، وهدفه من طرحها، إن كان من أجل البحث العلمي، أو كان من أجل إثارة الشبهات بين الشباب، فهي أسئلة تحتاج من المسلمين لإجابات مقنعة ترد على كثير من التساؤلات والشبهات التي تثار حول طبيعة وأهداف الفتوحات الإسلامية، وشخصيًا لا أرى أي حرج في طرحها من قبل المسلمين وغير المسلمين، بل على العكس من ذلك، أرى أنه يجب مناقشتها والرد عليها بكل صراحة وموضوعية ووضوح، لذلك سأحاول من خلال السطور القادمة الإجابة عنها بشكل مفصل:

اختلفت أهداف ودوافع الدول والحضارات عبر التاريخ في فتوحاتها وحروبها، فالإمبراطورية الفارسية مثلًا، ظهرت في نسختها الأولى المسماة بـ«الإمبراطورية الإخمينية» على يد الملك

قورش الكبير، واستطاع الفرس تكوين إمبراطورية كبرى ضمت في أقصى اتساع لها بلاد فارس والعراق وأجزاء من الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر وشرق ليبيا وجزء من أرض اليونان وسواحل البحر الأسود.

ولم تكن أهداف الفتوحات الفارسية نشر دين أو ثقافة معينة، بل كانت توسعات فارس العسكرية تهدف إلى وراثة طرق التجارة التي كانت تسيطر عليها حضارات العالم القديم، مثل حضارة البابليين والسومريين في بلاد الرافدين، والحضارة المصرية، والحضارة اليونانية، وكان الجنود الفرس يساقون بالسلاسل في الحروب الطاحنة التي جرت بأوامر الملوك الفرس الذين كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة، أو ظلًا للآلهة على الأرض، ويحكمون الناس بطريقة استبدادية مطلقة.

فعلى سبيل المثال كان أحد أكاسرة النسخة الثانية من الإمبراطورية «الإمبراطورية الساسانية الفارسية»، وهو كسرى «أبرويز»، يصف نفسه بـ«الرجل الخالد بين الآلهة»، و«الإله العظيم جدًا بين الرجال»[1].

(1) آرثر كريستنسن في كتابه «إيران في عهد الساسانيين».



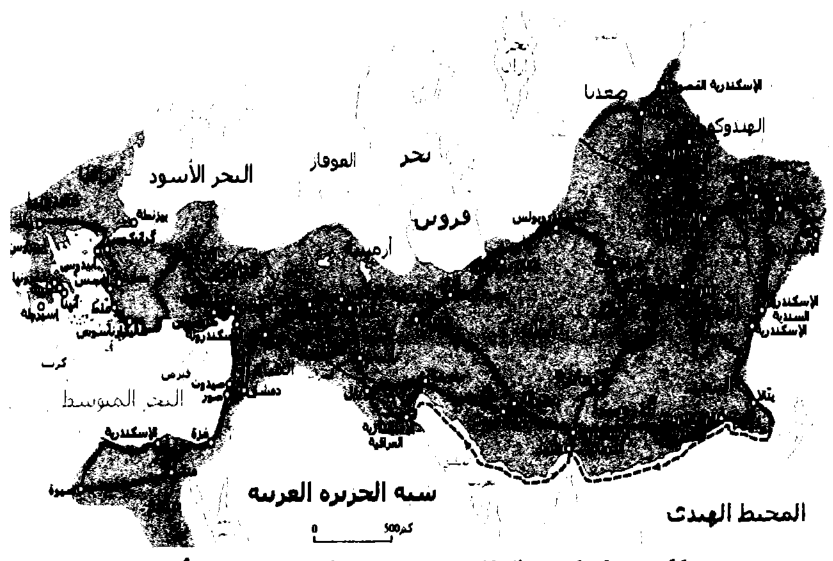
بقايا إيوان كسرى في قصر المدائن الأبيض

أما القائد الإغريقي الشهير الإسكندر المقدوني، المعروف باسم الإسكندر الأكبر «Alexander the Great»[1]، فقد تمكن من بناء إمبراطورية مترامية الأطراف، امتدت رقعتها من

---

(1) الإسكندر الأكبر: هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ، وُلد سنة 356 ق.م، وتتلمذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير أرسطو.

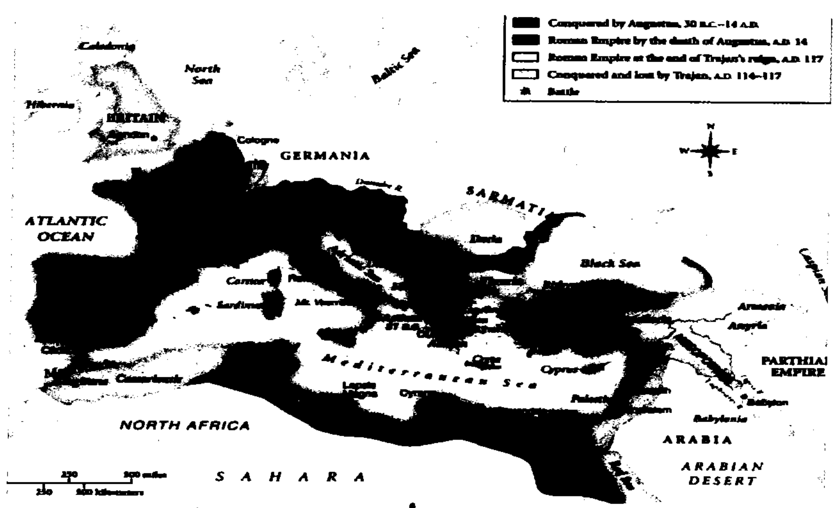
حدود مصر الغربية إلى جبال الهيملايا في الهند، وهدفه في ذلك كان في بداية الأمر الانتقام من الفرس الأخمينيين الذين أرادوا احتلال اليونان في السابق وأحرقوا حاضرتهم العريقة أثينا، فتمكن بالفعل عام 330 ق.م. من إنهاء وجود الإمبراطورية الفارسية الإخمينية بشكل نهائي.



الإمبراطورية التي كونها الإسكندر الأكبر

ثم تطور الأمر مع الإسكندر ليصبح هدفه في فتوحاته هدفًا شخصيًا، خاصة بعد أن أقنعه كهنة الفراعنة والفرس الذين

احتل بلادهم أنه إله من السماء[1]، بعد أن جُبل هؤلاء الكهنة المنافقون على عبودية ملوكهم السابقين وتأليه كل من يحكمهم، الأمر الذي لم يرق لجنوده الإغريق الذين تعودوا على الحرية التي أنشأتها أثينا قبل ذلك بسنوات، فأعلنوا رفضهم لألوهيته، وعصيانه على إكمال فتوحاته التي كانت لمجده الشخصي، قبل أن يغتالوه في أرض العراق بالسم.



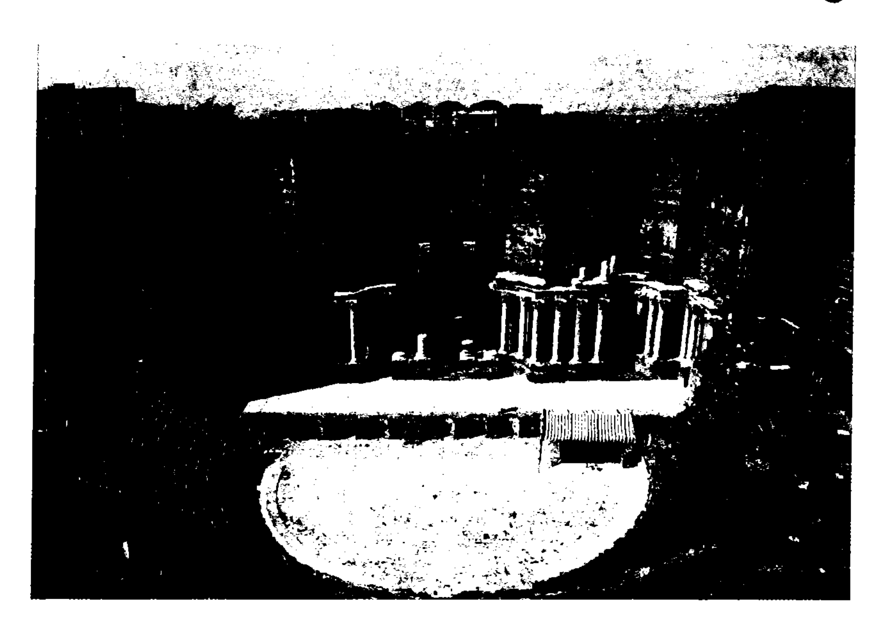
الإمبراطورية الرومانية في أقصى اتساع لها عام 117م

(1) وثائقي قناة ناشيونال جيوغرافيك الأمريكية: «Alexander the Great The Man Behind the Legend»، إنتاج 2004.

في حين بدأ التاريخ الفعلي لنشأة الإمبراطورية الرومانية بعد أن داهمهم القائد القرطاجي هانيبال[1] في عقر دارهم بفيلته التي جاء بها من أفريقيا لتدمير عاصمتهم روما، فتحول الرومان بعدها من الدفاع إلى الهجوم واحتلوا تونس، وأكملوا بعدها احتلال سائر دول البحر المتوسط وأغلب أراضي القارة الأوروبية، وكان الرومان يعاملون رعايا البلدان التي يحتلونها معاملة عنصرية، فكانت صفة المواطنة حكرًا على الرومان فقط، وارتكب الرومان أبشع أنواع الجرائم والتعذيب في حق الشعوب التي احتلوها، وكانت المسارح الرومانية مكانًا يستمتع المواطنون الرومان فيه برؤية الأسود والوحوش وهي تنهش لحوم الأبرياء

(1) هانيبال: قائد بونيقي وملك مملكة قرطاجة التي كان مركزها تونس، قاد حرب بلاده ضد الرومان فيما عرف بـ «الحرب البونيقية الثانية» التي استطاع خلالها الزحف إلى إيطاليا لمحاصرة روما، انتهت الحرب بهزيمة ساحقة له، وكارثة عسكرية أدت في نهاية الأمر إلى زوال مملكة قرطاجة إلى الأبد، وأدت تحركات هانيبال واستفزازه للرومان بمحاصرتهم في عقر دارهم إلى صدمة وجودية لهم، الأمر الذي أدى إلى توحش الرومان وبداية عصرهم التوسعي خارج شبه الجزيرة الإيطالية.

من مواطني الشعوب الواقعة تحت الاحتلال الروماني، وكان الاضطهاد الديني والمذهبي صفة ملازمة للإمبراطورية الرومانية في أكثر أوقاتها، فقد اضطهد الرومان الوثنيون أتباع المسيح الأوائل، ثم اضطهد الأباطرة الرومان الذين اعتنقوا النصرانية التثليثية غيرهم من النصارى الذين اختاروا اتباع مذاهب أخرى تخالف مذهب الدولة الرسمي، إضافة لليهود الذين ارتكب الرومان في حقهم مجازر بشعة، الأمر الذي أدى إلى تعاون اليهود مع الفرس المجوس ضد الإمبراطورية الرومانية.



أما بالنسبة للفتوحات العسكرية للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقد كان الأمر مختلفًا!

فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يؤمنون أن رسولهم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو آخر أنبياء الأرض، وأنه ثمة رسالة إلهية حُمِّل هو وأتباعه مهمة إبلاغها إلى بقية البشر، إبلاغ وليس إجبار، ملخص هذه الرسالة هو تحرير البشر من عبادة غيرهم من البشر، أو غيرهم من المخلوقات بشكل عام، وقصر تلك العبادة على الله وحده، باختصار كانت رسالة الإسلام للإنسانية هي تحرير البشر وجعلهم أحرارًا لا يركعون سوى لخالقهم.

هذه الرسالة بطبيعة الحال كانت تحتاج إلى مناخ من الحرية يتيح للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تبليغها لبني البشر دون تهديد لحياتهم، وهو الأمر الذي عبر عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل صلح الحديبية بطلبه للهدنة مع قبيلة قريش التي كانت تحاربه، فكان طلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الواضح أن يتركوا له حرية الدعوة دون قتال، وكما عبر عنه بقوله:

«يُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ»[1]

أي أن يتركوا له حرية دعوة الناس إلى هذه الرسالة التي كلف بتبليغها لبني الإنسان دون أن يتعرضوا له ولصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأي ضرر، لذلك كان من أول الأمور التي قام بها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد عقده لصلح الحديبية وضمانه لأمن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من غدر قريش، هو أن أرسل الرسائل إلى ملوك العالم وزعمائهم يدعوهم بها إلى رسالة الإسلام.

ولكن أصحاب النفوذ الذين كانوا يرون في هذه الرسالة تهديدًا لمصالحهم التي بنوها على جهل الناس وعبوديتهم لهم، حاربوا هذه الرسالة، وعملوا على منع وصولها إلى شعوبهم، ومن هنا كان وجود القوة العسكرية ضروريًا لمحاربة هؤلاء المستبدين، وليس لمحاربة الشعوب أو فرض الدين عليهم كما يعتقد البعض، فهدف تلك الفتوحات كان يقتصر على تأمين حرية دعوة الناس إلى معرفة رسالة الإسلام، وليس فرضه عليهم،

(1) «صحيح البخاري».

والأدلة على ذلك من القرآن وأحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرة، وقد ذكرنا بعضًا منها من خلال صفحات هذا الكتاب، ولأن المتطرف أو الكاره للإسلام لن يجد صعوبة في تفسيرها حسب فهمه الفاسد عن الإسلام وحكمه المسبق على هذا الدين، سأكتفي هنا برد تاريخي مبني على وقائع تاريخية موثقة لا مجال لنكرانها، فلو افترضنا جدلًا صحة ادعاء هؤلاء بأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جاءوا بالسيف لإجبار الناس على اتباع الإسلام، وفقًا لهذه الفرضية كان من المنتظر أن يتبع كل السكان الدين الإسلامي، أو أن يقتل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كل من يرفض اتباع الإسلام.

ولكن الواقع يثبت عكس ذلك، فمن أين جاء الملايين من المواطنين غير المسلمين الذين يعيشون تحت حكم المسلمين منذ مئات السنين؟!

وكيف يفسر من يعتقدون بمثل هذه الفرضية أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات ودرعه مرهونة عند يهودي[1]، أي أن اليهودي

---

(1) «صحيح البخاري».

كان يعيش بسلام في دولة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متمتعًا بحريته الدينية بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ليس ذلك وحسب، بل كان رسول الإسلام بنفسه يتعامل معه إنسانيًا وتجاريًا، فلو كان زعمهم صحيحًا، فلماذا لم يجبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك اليهودي على اتباع الإسلام؟

ولماذا لم يقتله أو يستولي على ماله بدلًا من أن يرهن درعه عنده؟

وماذا عن نصارى نجران الذين كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحاورهم بنقاش حضاري في مسجده ويسمع منهم بكل صراحة ومبدأ حرية التعبير بأنهم يكذبونه ولا يعتقدون بصدقه أو صدق رسالته؟!

لماذا لم يجبرهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على اتباع الإسلام بدلًا من محاورتهم وتركهم يرحلون بسلام إلى أرضهم؟

ولماذا لا تزال أقدم الكنائس في العالم موجودة في العالم الإسلامي؟

لماذا لم يهدمها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد فتحهم لتلك البلدان؟ ولماذا كتب الخليفة الثاني في تاريخ الإسلام وصاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه لمسيحيي القدس ما عرف في التاريخ بالعهدة العمرية التي تعهد بموجبها بحماية المقدسات الدينية لهم؟ لماذا لم يهدم الكنائس ويرتكب المجازر في حقهم كما فعل الفرس الساسانيون قبل ذلك بسنوات قليلة عندما احتلوا القدس من الرومان؟

«بسم الله الرحمن الرحيم،

هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين عمر، أهل إيليا[1] من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ولصلبانهم ومقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حدها، ولا من صلبانهم، ولا شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود[2]،

---

(1) إيليا: اسم قديم للقدس.

(2) لم يكن أحد من اليهود يسكن القدس في ذلك الوقت، وكان هذا =

وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن[1]، على أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعتهم وصليبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم وصليبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان فيها من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على إيليا من الجزية،

= الشرط مطلبًا من المسيحيين أنفسهم، وذلك لأن العلاقة بين مسيحيي ويهود الشام كانت متوترة في ذلك الوقت، فأثناء الحروب الفارسية الرومانية التي سبقت الفتح الإسلامي ارتكب اليهود والرومان مذابح في حق بعضهم البعض، فقد تعاون اليهود مع الفرس أثناء الحرب، فمكَّن الفرس اليهود في الشام مكافأة لهم على تعاونهم ضد الرومان، وبعد انتصار الرومان على الفرس، انتقم المسيحيون من اليهود، وارتكبوا مجازر في حقهم، فخشي مسيحيو القدس من أن يعيد المسلمون اليهود إلى القدس، لذلك اشترطوا على المسلمين هذا الشرط.

(1) أهل المدائن: أهل بقية مدن فلسطين والشام.

ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أرضه، فإنه لا يؤخذ منه شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته، وذمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليه من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.

كتب وحضر سنة خمس عشرة»[1]

لذلك فإن فتوحات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم تكن بهدف إجبار الناس على الإسلام، وإنما كانت تهدف بشكل أساس لمحاربة الملوك المستبدين الذين كانوا يستعبدون شعوبهم، ويرون أن رسالة الإسلام، بما تحمله من قيم للمساواة والعدل والحرية، تتنافى مع رغباتهم الاستبدادية، وتهدد عروشهم التي بنيت على الظلم، لذلك لم يرغبوا بأن تصل هذه الدعوة إلى شعوبهم، لأنها تمثل خطرًا وجوديًا لحكمهم الاستبدادي القائم على سياسة تقديس الشخص الواحد.

---

(1) «تاريخ الطبري».

وقد أدرك القائد العربي المثنى بن الحارثة الشيباني[1] رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الأمر مبكرًا، وذلك عندما اعتذر المثنى عن إيواء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ديار بني شيبان في العراق خوفًا من غضب الإمبراطورية الفارسية التي كانت ديار شيبان على حدودها، فبعد أن استمع قادة بني شيبان إلى ما يدعو إليه الإسلام من قيم ومبادئ، اعتذر المثنى بن الحارثة الشيباني الذي كان بمثابة وزير الدفاع في القبيلة عن قبول طلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال المثنى للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكره الملوك!»[2]

وبالفعل صدق توقع المثنى رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد أعلن كل من

---

(1) المثنى بن حارثة الشيباني: المسؤول الحربي لقبيلة شيبان في الجاهلية، وأحد قادة الفتح الإسلامي في بلاد فارس، ويعتبر من التابعين رغم لقائه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه عندما التقاه كان مشركًا ولم يلتق به وهو مسلم، أسلم سنة تسع للهجرة، كلفه الخليفة أبو بكر الصديق بقتال الفرس مع قومه قبل بعث خالد بن الوليد إلى العراق.

(2) «السيرة النبوية» لابن كثير.

إمبراطور الإمبراطورية الفارسية وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية البيزنطية الحرب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن وصلتهما رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم الذين بدأوا الحرب مع هاتين الإمبراطوريتين.

وربما يغيب عن البعض، أن مسألة الفتوحات الإسلامية التي قام بها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كانت مسألة مرتبطة بشكل وثيق بالصراع الإسلامي الروماني، والصراع الإسلامي الفارسي، وأن فتوحات العراق وفارس والشام ومصر وشمال أفريقيا وكثير من المناطق، كانت مجرد حلقات من مسلسل طويل الأمد للصراع مع هاتين الإمبراطوريتين اللتين كانتا تحتلان هذه الأراضي، وكان هذا هو السبب الأساس لتركيز الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على فتح هذه الأراضي بالذات، فمن قرأ أحداث تلك الفترة الزمنية الحرجة بشكل مفصل من كتب التاريخ، سيدرك تمام الإدراك أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يواجهون بشكل مستمر تهديدات مصيرية من هاتين الإمبراطوريتين، وبمجرد انتهاء المسلمين من

معركة من المعارك الكبرى، تبدأ جيوش هاتين الإمبراطوريتين بالتجهز للهجوم على المسلمين في معركة جديدة، الأمر الذي جعل الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ في وضعية تأهب دائم.

الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ كانوا يواجهون جيوش هاتين الإمبراطوريتين الظالمتين بكل بسالة، ويقدمون الشهيد تلو الشهيد في تلك المعارك، وقد انتشرت قبور شهداء الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ في مناطق مختلفة في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا وغيرها من الأراضي التي تشرفت باحتضان قبور أصحاب محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بعد أن حرروا شعوب تلك البلدان من احتلال الفرس والرومان اللذين كانوا يمارسون أبشع أنواع المذابح والفظائع في حق الشعوب المستضعفة.

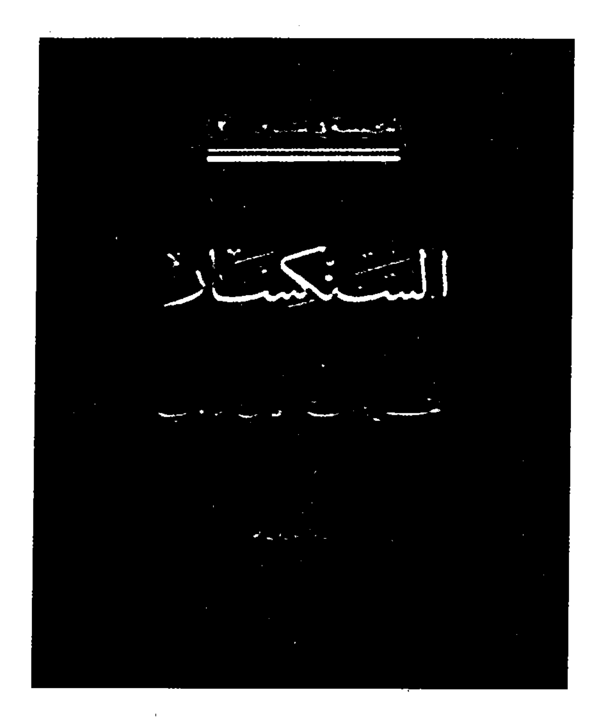
ولا يتسع الوقت هنا لذكر جميع صور هذه المذابح والفظائع، ولكن يكفي أن نذكر أن الرومان كان يضطهدون سكان مصر من الأقباط ويلقون بهم في أوعية مليئة بالزيت المغلي، وأن بابا الأقباط بنيامين الأول كان هاريًا من ظلم الرومان لمدة ثلاثة عشر عامًا حتى جاء المحرر العربي المسلم الصحابي عمرو بن العاص

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليحرر أقباط مصر من ظلم الرومان المستبدين ويحرر بنفسه بابا الأقباط بنيامين الأول بعد سنوات طويلة كان فيها طريدًا للرومان، كما جاء في أشهر كتب الأقباط التاريخية الذي يؤرخ لتلك الفترة، كتاب السنكسار، الذي ذكر أن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصدر كتابًا جاء فيه:

«أما عمرو بن العاص، فإذ علم باختفاء البابا بنيامين،
أرسل كتابًا إلى سائر البلاد المصرية يقول فيه:
الموضع الذي فيه بنيامين بطريرك النصارى القبط له
العهد والأمان والسلام، فليحضر آمنًا مطمئنًا ليدبر شعبه
وكنائسه، فحضر الأنبا بنيامين بعد أن قضي ثلاثة
عشرة[1] سنة هاربًا، وأكرمه عمرو بن العاص إكرامًا
زائدًا، وأمر أن يتسلم كنائسه وأملاكها»[2]

---

(1) والصحيح أن يقال: ثلاث عشرة سنة، ولكنا نقلنا النص كما هو موجود في هذا الكتاب المسيحي التزامًا بمبدأ أمانة النقل.
(2) كتاب «السكنكسار»، موقع الأنبا تكلا هيمانوت:
.www.st-takla.org



لذلك فإن من يصف فتوحات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لتلك البلدان بأنها كانت مجرد احتلال عربي، يغيب عنه أن تلك البلدان كانت أساسًا محتلة لمئات السنين من الفرس والرومان، وأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين رحمهم الله إنما قاموا بتحرير سكان تلك البلدان، قبل أن يعجب أغلب هؤلاء السكان برسالة النبي العربي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويعلنوا إسلامهم عن قناعة وإيمان.

وأختم الحديث عن قضية فتوحات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بكلمات كتبها القائد البريطاني الشهير الفيلد مارشال برنارد مونتغومري «Field Marshal Bernard Law Montgomery»، وهو أحد أشهر قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، مونتغومري ألف بعد تقاعده موسوعة ضخمة يتناول فيها تاريخ الحرب عبر التاريخ أسماها «الحرب عبر التاريخ» «A History of Warfare»، في هذه الموسوعة أوضح هذا القائد البريطاني أن أهم أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية هو أن الإسلام كان يعتبر بمثابة محرر الشعوب من العبودية، يقول الفيلد مارشال برنارد مونتغومري:

«وقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدىً لم تصله في أي عهدٍ سابق، وذلك ليس فقط لأنهم كانوا أكثر عددًا، بل وأيضًا لأنهم كانوا يستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة، فزاد إيمان الشعوب بهم، علاوةً على تميزهم في نفس الوقت بالصلابة والشجاعة

والقتال، وقد أدى كل ذلك إلى اعتناق كل الشعوب التي انتصر عليها العرب الدين الإسلامي»[1]



(1) مونتغمري، «الحرب عبر التاريخ»، ترجمة وتعليق: العميد فتحي عبد الله النمر.



فالحبُّ يسمـو ثم يسمـو عاطـرًا ... حين الحديثُ عن الصحابةِ يأتي

هُم قامةُ الجوزاءِ هم بدرُ الدُّجى ... هـم نـورُ حـقٍ بـدَّد الظـلمـاتِ

(الشاعر عبد الرحمن السبهان)

كنت يومها فتًى صغيرًا، أدرس في إحدى مدارس مدينة رفح الفلسطينية في قطاع غزة، عندما وقفت أمام أستاذي وسألته والغيظ يغمرني: لماذا نضيع الوقت بدراسة قصة رجل يحمل مثل هذه الصفات؟!

كان قلبي يومها مشبعًا بالغضب ونحن ندرس قصة صحابي عجَّت كتب المناهج الدراسية الرسمية بروايات تتحدث عن غدره وخيانته، ففشلت كل محاولات أستاذي لتغيير نظرتي تلك عن ذلك الصحابي، ولم تقنعني إجابته بأنه لا ينبغي التحدث عن

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بهذه الصورة غير اللائقة، خاصة وأني كنت مطلعًا على روايات كثيرة أخرى تطعن بهذا الصحابي وغيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هذه الروايات اطلعت عليها من خلال ما كنت أقرؤه من كتب، وما كنت أتابعه في وسائل الإعلام المختلفة من أعمال أدبية وفنية، ولكن الشيء الذي لم أكن مطلعًا عليه وقتها، هو أن تلك الروايات السلبية عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانت في حقيقة الأمر روايات مزيفة، روايات باطلة من الناحية العلمية البحتة، اختيرت خصيصًا ليُسَلَّط الضوء عليها في المناهج الدراسية، والأعمال الأدبية والفنية، ووسائل الإعلام المختلفة، لكي نصل أنا وأنت وغيرنا من أبناء هذه الأمة إلى مرحلة الانكسار الداخلي الناتج عن فقدان الثقة برموزنا ومقدساتنا!

والحقيقة أن سوء ظني السابق بصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يكن نابعًا من فراغ، فلقد كنت وقتها ضحية من ضحايا ما أحب أن أطلق عليه «الغزو التاريخي»، هذا الغزو الخطير يركز على الطعن والتشكيك بكل ما هو مقدس في تاريخنا، من خلال أعمال أدبية وفنية تهدف إلى تدمير أسباب وجودنا أصلًا على ساحة التاريخ، فيسلط الغزاة الضوء على مراحل الضعف التي

مرت بها الأمة عبر تاريخها الممتد لمئات السنين، أو على السلبيات والأخطاء التي رافقت مسيرة بعض الرموز التاريخية، غافلين عن حقيقة أن التاريخ عبارة عن منتوج بشري، والمجهود البشري بطبيعته يحتمل الصواب والخطأ، وفي بعض الحالات كان هؤلاء الغزاة يختلقون قصصًا تاريخية مزورة، لكي يتحول رموزنا في أعيننا إلى مجرد قتلة مجرمين، وتاريخنا إلى بقعة سوداء في عمر الحضارة الإنسانية، وبعد أن تُزرع فينا مثل هذه النظرة القاتمة عن تاريخنا ورموزنا، فإن مفهوم القدوة يسقط من أعيننا دون أن نحس نحن بذلك، وعندها وبكل سهولة، نسقط أنا وأنت كالثمار الفارغة بسهام غزاة التاريخ!

هذه القناعة الراسخة التي توصلت إليها بعد سنوات طويلة من الشك والبحث والمتابعة والتأمل، دفعتني إلى دراسة تاريخ الأمة الحقيقي من مصادره الأصلية، لاكتشف بعدها عِظم حجم الكارثة التي أصابتنا في تاريخنا من عمليات تزييف وتحريف ممنهجة، فأخذت على عاتقي مسؤولية الدفاع عن تاريخ أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظماء هذه الأمة، وعلى رأسهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا شك أن الكتابة عن أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هي من أعظم الأمور التي يتشرف بها المسلم، ليس فقط لأنه يدافع من خلالها عن رموز الأمة الأوائل، ولكن أيضًا لأن دراسة تاريخ الصحابة توضح للمسلمين دينهم، وتبين لهم كثيرًا من المسائل المتنازع عليها بين الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، لذلك حرصت في كل كتاباتي وأعمالي الأدبية على ذكر هؤلاء الأبطال الذين دافعوا عن نبينا وحبيبنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدموا أموالهم وأرواحهم للذود عنه وعن الدين الذي وصلنا من خلالهم.

وكم كانت سعادتي كبيرة عندما كنت أرى الشباب والأطفال من القراء والمتابعين الكرام يقبلون على دراسة سير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويبعثون لي برسائلهم التي يخبرونني من خلالها أن وجدوا ضالتهم في كلمات كتبتها أو قلتها عن أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن بين كل مقاطعي المرئية التي أنتجتها في شبكة الإنترنت، ونشرتها على قناتي في موقع اليوتيوب، كانت حلقة برنامج «العظماء المائة» الخاصة، التي أنتجتها عن صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أكثر حلقة سعدت بها لتجاوزها عتبة المليون ونصف المليون مشاهدة، ولا

تزال هذه الحلقة في اليوتيوب من أكثر المقاطع المرئية مشاهدة على الإطلاق فيما يخص سيرة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولله الحمد والمنة أن شرفني بذلك.

وفي الختام...

فإني قد رجوت الله عندما انتهيت من كتابة كتابي السابق «مدرسة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» رجاءً لخصته في المقطع الأخير من ذلك الكتاب:

«كنت أعلم منذ البداية بصعوبة الكتابة عن كل الدروس المستفادة من سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنني الآن أدركت أنني كنت مخطئًا في اعتقادي هذا، فلقد أدركت أن الأمر يتعدى مرحلة الصعوبة إلى مرحلة الاستحالة، فليس هناك مجال لحصر دروس مدرسة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتاب واحد، لذلك اكتفيت بما كتبت، آملا بالرجوع لكتابة جزء ثان لهذا العمل في المستقبل، لكي أستعرض فيه بعض الدروس الإنسانية التي لم أتطرق إليها في «مدرسة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، كالعدل والمساواة ومحاربة العنصرية وغيرها من الدروس، أو ربما أكتب في دروس مستمدة من بقية الأنبياء عليهم السلام، أو دروس من مدرسة

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإن قدر الله ذلك وأمدني بالعمر والصحة وهيأ لي الظروف المساعدة فسأحرص بكل ما أوتيت من قوة على القيام بذلك بحول الله، أما إذا لم يقدر المولى عَزَّوَجَلَّ ذلك ولم أتمكن من إنجاز هذا المشروع المستقبلي، فإن الخيرة فيما اختاره الله، وأرجو أن يخرج من قراء هذا الكتاب من يكمل هذا الطريق، وأن تكون فكرة هذا الكتاب مقدمة لأعمال مستقبلية تاريخية تساهم في عودة الأمة إلى سابق عهدها».

لن أغير كثيرًا في هذه الكلمات التي ختمت بها كتاب «مدرسة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فنفس هذا الكلام والرجاء ينطبق على خاتمة هذا الكتاب أيضًا، الشيء الوحيد الذي يمكن أن أضيفه فقط هو أنني أحمد الله عَزَّوَجَلَّ الذي قدر لي أن أكتب «مدرسة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»، هذا الكتاب الذي لطالما حلمت بكتابته منذ زمن، لعل الله أن يرزقني وإياكم ومن نحب رفقة صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورفيقه في الغار أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفقة الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفقة ذي النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفقة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفقة أمنا المجاهدة خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ورفقة الأمين أبي

عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، ورفقة فارس غزوة بدر الكبرى المقداد بن عمرو رضي الله عنه، ورفقة حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام رضي الله عنه، ورفقة الشهيد الحي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، ورفقة أمنا الحبيبة عائشة رضي الله عنها، ورفقة سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه، ورفقة الفتى المغامر سلمان الفارسي رضي الله عنه، ورفقة حامل اللواء مصعب بن عمير رضي الله عنه، ورفقة الصديق الوفي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ورفقة بقية الصحابة الكرام رضي الله عنهم في جنة الفردوس، في حضرة صاحبهم وحبيبهم وحبيبنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

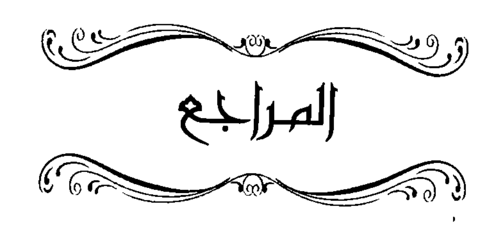
لا تنسوني من صالح الدعاء... أخوكم المحب جهاد الترباني

للتواصل: Jehad.tr@hotmail.com

تويتر: @alturbani

انستغرام: jehadalturbani

فيسبوك: مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ



المراجع

- البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، 1407هـ، 1987م.

- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الفكر - بيروت 1398هـ - 1978م.

- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة، بيروت 1413هـ - 1993م.

- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر - بيروت 1409هـ - 1989م.

- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت 1415هـ - 1994م.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي: تفسير القران العظيم، تحقيق سامي ابن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ - 1999م.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1988م.

- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، مكتبة الصديق، الطائف 1416هـ - 1996م.

- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر - بيروت، 1412هـ - 1992م.

- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ - 1959م.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القران، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1405هـ - 1985م.

- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجة، الرسالة، 1430 هـ - 2009 م.

- أبو داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق: سنن أبي داود، دار الرسالة، 1430 هـ - 2009 م.

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس: إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الكتب العلمية - بيروت، 1411هـ - 1991م.

- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الجيل، بيروت، 1412هـ - 1992م.

- أبو داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق: سنن أبي داود، دار الرسالة، 1430 هـ - 2009 م.

- الواقدي، محمد بن عمر: مغازي الواقدي، دار الأعلمي - بيروت، 1409هـ - 1989م.

- شوقي أبو خليل: أطلس السيرة النبوية، دار الفكر، 1429هـ - 2008 م.

- البايبل «الكتاب المقدس»، دار المشرق، 2015م.

- الواحدي النيسابوري، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، دار الإصلاح، الدمام، 1412هـ - 1992م.

- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى: شرح المهذب، مكتبة الإرشاد، جدة.

- السمهودي، علي بن عبد الله: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار الرسالة، 1419هـ - 1999م.

- الطبري، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر: تاريخ الطبري «تاريخ الرسل والملوك»، دار المعارف، 1387هـ - 1967م.

- الطبري، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن «تفسير الطبري»، دار المعارف، 1422هـ - 2001م.

- الخطيب البغدادي الدارقطني، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417 هـ - 1997م.

- النسائي، أحمد بن شعيب بن علي النسائي: سنن النسائي، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، 1406 هـ - 1986م.

- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري: صحيح جامع بيان العلم وفضله، مكتبة العلم، جدة، 1416هـ - 1996م.

- ابن حجر العسقلاني، علي بن أحمد بن حجر العسقلاني: هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، دار ابن القيم، دار الرسالة، 1422 هـ - 2011 م.

- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الكبير، دار الصميعي، الرياض، 1415 هـ - 1994 م.

- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الأوسط، دار الحرمين، الرياض، 1415 هـ - 1995 م.

- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان: صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ - 1993م.

- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان: الثقات لابن حبان، دائرة المعارف العثمانية، 1393 هـ - 1973 م.

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي: دلائل النبوة للبيهقي، دار الكتب العلمية، 1408هـ - 1988م.

- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن: تاريخ دمشق

لابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ - 1995م.

- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الحديث، القاهرة، 1416هـ - 1995م.

- المباركفوري، صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الهلال، بيروت، 1430 هـ - 2009 م.

- الهيثمي، نور الدين الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ - 1994م.

- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله: المستدرك على الصحيحين للحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411 هـ - 1990م.

- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، دار الأندلس للنشر، بيروت، 1430 هـ - 2009 م.

- أحمد شاكر: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، دار الوفاء، 1426 هـ - 2005 م.

- البغوي، الحسين بن مسعود البغوي أبو محمد: معالم التنزيل، دار طيبة، بيروت، 1409 هـ - 1989م.

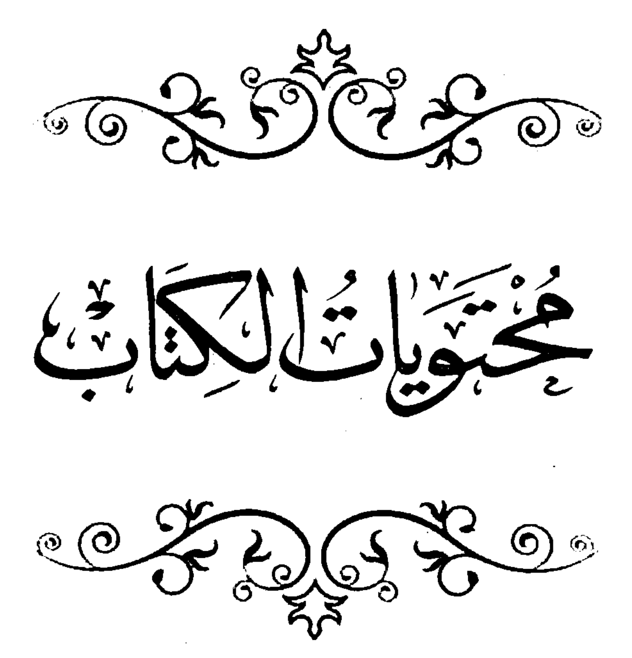
- أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق، دار النفائس، 1411هـ - 1990م.

- مونتغمري، الفيلد مارشال برنارد مونتجمري: الحرب عبر التاريخ، ترجمة وتعليق: العميد فتحي عبد الله النمر.، مكتبة الأنجلو المصرية، 1971م.

- محمود شيت خطاب، الواء الركن محمود شيت خطاب الموصلي: كتاب الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، 1423هـ - 2002م.

- آرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، دار النهضة العربية، بيروت، 1400هـ - 1990م.




مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ

محتويات الكتاب